

# العنف والعدوانية في التأثير النفسي

مكاشفان بنبوة  
في سلسلة العدوانية عند فرويد

د. علي أسعد وطلحة

**العنف والعدوانية  
في التحليل النفسي**

د. علي أسعد وطفة

# العنف والعدوانية في التحليل النفسي

مكاشفات بنوية  
في سيكولوجية العدوانية عند فرويد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٨

---

العنف والعدوانية في التحليل النفسي : مكاشفات بنوية في سينكولوجية  
العدوانية عند فرويد / علي أسعد وطفة . - دمشق : الهيئة العامة السورية  
للكتاب ، ١٩٢٠ - ٢٠٠٨ ص ٢٤ .  
( في النفس وقضاياها ٤ )

١- ١٥٢,٤ و طف      ٢- العنوان      ٣- وطفيه  
٤- السلسلة

مكتبة الأسد

في النفس وقضاياها

«٥»

## إهداء

أودعنى القدر بين يديها فكانت لي حبًّا ورحمة.....

إلى التي أبصرتني بعينيها جمال الدنيا وما فيها.....

إلى القنديل الذي يضيء ويومض حبًّا في أعماق قلبي.....

الحبيبة والزوجة الغالية شادية.....

## **العنف والعدوانية في التحليل النفسي**

### **مكاشفات بنوية في سيكولوجية العدوانية عند فرويد**

#### **مقدمة**

في أصل العدوانية يكمن فيض أسرار لا يتناهى تنوّعه ولا ينقطع تدفقه. وفي البحث عن خفايا هذه القضية وأسرارها يشد علماء النفس الحال ويعقد علماء الاجتماع العزم. فالعدوانية حقيقة بيوسيكولوجية تضرب جذورها في أعماق الكائنات على امتداد تنوّعها واختلاف صورها وتجلياتها، وهي حقيقة تشتد غموضاً كلما اشتد الطلب في الكشف عن ماهيتها واستجلاء خفاياها.

لقد شكلت هذه القضية منذ بداية التاريخ الإنساني هاجساً معرفياً يقض مضاجع المفكرين وال فلاسفة، وما زال العقل الإنساني حتى اليوم يكدا في البحث عن ماهية العدوانية، ويجد في الكشف عن أسرارها وخفاياها وضررها تجلياتها. وفيض تاريخ المعرفة الإنسانية بعظمي المحاولات الفكرية التي تسعى دون انقطاع إلى استجلاء هذه الحقيقة التي ما زالت نسبياً في دوائر المتأهّلات الغامضة. وبائي هذا السعي الفكري الإنساني المستمر تكثيفاً لإرادة إنسانية تزيد أن تهتك حجب الحقيقة، دون أن تقف عند حدود التفسيرات

الأحادية الجانب، التي تتأى عن القصد وتضعف عن اللحاق بخفايا هذه الظاهرة أسرارها. وفي نسق هذا القصد فإن الكشف عن ماهية هذه الظاهرة وجوهرها أمر يتجاوز حدود القنطر والتخوم العلمية المعروفة. فالعنف ليس حقيقة سوسيولوجية أو نفسية أو بيولوجية فحسب بل هو حقيقة تتكون من هذه الأبعاد جميعها وتتجاوزها في الآن الواحد.

تأخذ العدوانية صورة رمزية مشفرة لتكوينات نفسية واجتماعية بالغة التنوع، وبالتالي فإن هذه الصورة بما تتطوّر عليه من خفايا رمزية تتحدى الجهود العلمية وتشكل حتى اليوم رهاناً علمياً يشد العقل الإنساني ويشتد في طلبه. ويضاف إلى هذا كله طابع التغير الدائم في طبيعة الأشياء الذي يجعل من اللحاق بهذه الحقيقة الغامضة أمراً في غاية الصعوبة. وإذا كان الإقرار بحقيقة مطلاقة يتنافى مع الروح العلمية، فإن هذه الروح العلمية تسعى إلى تقليل المسافة بين الوهم والحقيقة وإلى الكشف عن أسرار الأشياء وخفافيها بصورة مستمرة. وانطلاقاً من هذه الروح العلمية يأتي البحث الدائم عن حقيقة العنف و מהية العدوان وذلك لما لهذه الظاهرة من أهمية كونية في عالم الإنسان القديم والمعاصر.

ومع أهمية الجهود العلمية التي كرست لدراسة ظاهرة العنف والعدوانية فإن هذه الحقيقة ما زالت في أطوارها الجنينية، وما زال هذا الجانب يحتاج إلى مزيد من الجهود العلمية التي يمكنها أن تقف على تضاريس هذه الظاهرة ولاسيما من الناحية السيكولوجية. وهنا تجدر الإشارة إلى وجود عدد كبير وهام من الأعمال السيكولوجية التي تناولت هذه القضية وحاولت استجلاء معاناتها، إلا أنها ما زالت قاصرة عن تفسير السلوك العدوانى عند الإنسان

وتحديد أبعاده وإسقاطاته الإنسانية. فالأبحاث النقدية التي أجريت حول هذه الظاهرة ما زالت في طور البداية والانطلاق وفي هذه البدايات تظهر الصعوبات المنهجية التي تعرّض البحث النّقدي وذلك لما تنسّم به هذه القضية من أهمية وخطورة.

ومثل هذه القضية بما تتطوّر عليه من صعوبات منهجية وتحديات علمية واجتماعية كانت دائماً وأبداً تحتاج إلى مفكرين مرموقين يمتلكون مشروعية البحث النّقدي بما عرّفوا به من جدارة علمية وأصالة منهجية وقد سجل فرويد نفسه بين كبار المغامرين الذين هنّكوا حجب هذه القضية وكشفوا الستار عن الأصول النفسيّة لظاهرة العدوانية الإنسانية.

لقد عرك هذه القضية وتمرس في الكشف عن أسرارها المذهلة محاولاً عبرها أن يكتشف منابع السلوك الإنساني وأن يحدد المكتنّزات الكبرى للطاقة النفسيّة عند الإنسان. فالنزعة العدوانية تأخذ مركز الأهميّة في المنظور الفرويدي، ومن هذا المنطلق يسعى فرويد بعقريته الفذة ليرسم الخطوط العريضة لاستراتيجية العدوان والعنف. وفي سعيه هذا استطاع أن يقدم للمعرفة الإنسانية تصوّرات علمية دقيقة ومتكمّلة منهجياً ومعرفياً في محاولة منه الكشف عن ماهية هذه الظاهرة وتحديد أبعادها.

لقد جاءت الرؤى المتغيرة لفرويد حول العنف نتيجة طبيعية لنسق رؤيته الفلسفية المتغيرة للوجود. حيث كان يؤمن، في كل مرحلة من مراحل تفكيره، بأن الحقيقة لا ترثى دفعه واحدة بل تنمو وترثى وتنتكامل في تجليات متباينة عبر دوائر الزمان والمكان. وعلى هذا الأساس كانت عقريته السّيكلولوجية تتفق بعطاءات نوعية مجده تفكيره العلمي. وتأسياً

على ذلك كان فرويد كالرسام الذي يبدع لوحته في مرسم العدوانية، حيث يقدم صورة متكاملة لظاهرة العنف والعدوانية على مدى مراحل تاريخية متباينة من نشاطه المعرفي، وكانت هذه الصورة ترتبط دائماً بمدى اكتشافاته العلمية المختلفة وبمدى اتساع نظرته لمنابع السلوك الإنساني ودينامياته.

وفي إطار معالجته لهذه القضية استطاع أن ينمّي منهجه علمية تتميز بالأصالة والجذارة واستطاع عبر هذه المنهجية أن يقدم فيضاً متساقاً ومتكملاً من العطاءات المعرفية في مجال تفسير العنف والعدوانية في السلوك الإنساني.

كان منهجه العلمي وعقيدته الفكرية ترفضان معاً كل أشكال التصلب والجمود العلميين، وعلى هذا الأساس كان يلجاً إلى مراجعة ذاتية مستمرة لأفكاره وتصوراته؛ وكان توافقاً إلى أن يضع رؤاه ونظرياته تحت مجهر النقد العلمي الأصيل وقد سرّه دائماً أن تكون أعماله في متناول الباحثين والدارسين ليقف فيما بعد على ما يبديه هؤلاء الباحثون من آراء نقدية حول مقولاته وعطاءاته الفكرية.

وإذا كانت نظرية فرويد حول العدوانية الإنسانية واحداً من أهم عطاءاته المعرفية في ميدان التحليل النفسي، فإن الدراسات النقدية التي تناولت هذا العطاء بصورة نقدية ومنهجية مازالت في طور البدائيات والبدائيات الخجلة تحديداً. وهذا على خلاف ما عرفناه من جدل علمي دارت رحاه حول الجوانب الأخرى من نظرية فرويد في التحليل النفسي ولاسيما حول قضيّاً للبيبيدو والجنس واللاشعور. ومن منطلق ندرة البحث النافي في مسألة العدوانية عند فرويد فإن بحثنا هذا يأتي استجابة لضرورة منهجهية يمكنها أن

تبني منطق الحاجة العلمية إلى رؤية نقدية متكاملة جادة لمنظور فرويد في العدوانية الإنسانية.

وبعيداً عن وهج الروح النقدية التي تقف بـها هذه الدراسة لمناحي الرؤية الفرويدية في العدوانية، فإن دراسة الأسس النفسية لظاهرة العنف قمينة بأن تحمل لنا فيضاً من العطاءات التربوية التي نتلمس حاجتها في ميدان العمل التربوي الجاد. فالعدوانية هي الظاهرة التي تسم سلوكنا في ميدان التربية والتعليم؛ وما أحوجنا اليوم إلى رؤية علمية سيكولوجية تضع ظاهرة العدوانية أمام العقل، لتضيء لنا جوانب مظلمة في فعالياتنا التربوية، تمكننا من بناء تربية تعزز في الإنسان القيمة العليا للحياة الإنسانية في مستواها التربوي.

فالعدوانية تشكل مرضًا من أمراض العصر، وداءً يلم بأطراف الحياة التربوية المعاصرة في خضم عصر يختنق بتطوراته الذاتية، ولذلك فإن الكشف العلمي المتامٍ عن قانونية هذه الظاهرة في مستوياتها المختلفة يشكل ضرورة تربوية لازبة. وتأسِّساً على ذلك تأتي دراستنا هذه محاولة نقدية كافية عن الأصول السيكولوجية للعدوانية في نسق عطاءات فكرية ما تزال تحت قطب المركزية في مجال التفسير السيكولوجي لهذه الظاهرة المعقدة.

ويضاف إلى ذلك أن الكتاب يحاول أن يقدم صورة علمية لمنهجية فرويد المترفردة في مقارنته لقضايا العنف والعدوانية والظواهر النفسية عبر دائري الزمان والمكان من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا العمل الندي يأتي بدوره كمحاولة منهجية تتناول أعمال فرويد ومساعيه الخلاقة في هذا الميدان.

ولا يقف العمل في هذا الكتاب عند حدود السيكولوجيا الفرويدية للعدوانية وإن كانت تشكل المحور الأساسي له، بل يبحث في مفاهيم العدوانية ومظاهرها وفي تجلياتها الفيزيائية والفيزيولوجية كما أثنا نقدم مظهراً من أخطر مظاهرها وأكثرها إيلاماً يتمثل في حمامات الدم حيث تهدر دماء الأطفال طلباً لأعضائهم الجسدية.

وعلى خلفية هذه المعاني التي سجنا بعضًا من أهميتها ندعو القارئ المهم والمتخصص والمتخصص والمثقف أن يرحل معنا في مضامين هذه المحاولة آملين له أن يجد ما يلبي الحاجة العلمية وما يشبع الفضول المعرفي المتقدم نحو بناء تصورات علمية ورصينة عن ظاهرة العنف والعدوانية في أنساقها النفسية والاجتماعية.

و قبل الخوض في دراسة المظاهر العدوانية في التكوين النظري عند فرويد آثرنا في البداية أن نقدم تحليلاً لمفهوم العدوانية والمفاهيم المتداخلة معه وذلك تمهيداً للبحث في القضايا الصميمية لمفهوم العدوان وتجلياته في نظرية التحليل النفسي.

**المبحث الأول:**

## **مظاهر العدوانية الإنسانية وتجلياتها**

(السلام الكلي لا يسود إلا في داخل المقابر).<sup>(١)</sup>

بول ليفي Paul Levey

تحتل ظاهرة العنف والعدوان وهمجية الإرهاب مكاناً مركزياً في  
فعاليات الحياة الإنسانية المعاصرة في مختلف المستويات والاتجاهات. وتشكل  
في الوقت نفسه واحدة من أهم التحديات التي تواجه طموحات الإنسانية في  
حياة مساملة تخلو من العنف والتممير والقهر. ويفرض مفهوم العدوانية نفسه  
اليوم بوصفه واحداً من الأقطاب المركزية للمفاهيم في الفكر الإنساني  
المعاصر. وتعد هذه الظاهرة من أكثر الظواهر الإنسانية خطورة وغموضاً  
وضبابية، وهي تشكل في الوقت نفسه واحدة من أهم التحديات التي واجهت  
العقل الإنساني وما زالت تواجهه في سعيه الدائم للكشف عن ماهية الظواهر  
ورصد معطياتها واستجلاء هويتها. وعلى الرغم من الجهد الكبري التي

---

Paul Lévey: Présentation académique de G.Bouthoul lors de la remise du doctorat Honoris (١)

Causa de l'Un. catholique de Louvain, 13 Mars, 1971.

سيطرها العقل، الإنساني في ميدان الكشف عن أصول العنف والعدوانية ومظاهرهما، فإن حصاد هذه الجهود ما زال في طوره الأول، وما زال العنف يطرح نفسه كـ**إشكالية فلسفية واجتماعية في قلب الحياة الإسلامية المعاصرة**.

شهدت الحياة الإنسانية منذ القدم صوراً أسطورية تفوق إمكانيات الخيال لإرادة القتل والتدمير وحروب الإبادة الجماعية والعرقية. وهناك فيض من الشواهد التاريخية على حضور العدوانية في الإنسان عبر التاريخ. فالعنف والعدوانية ظاهرة متجلزة في التاريخ، وشوواهدتها في العصور القديمة غاية في التنوع، ونكتفي الإشارة هنا إلى أنه في إحدى القبائل البدائية، إذا ما أراد الرئيس أن يبعث بخطاب لميت (متوفى) أسمع هذا الخطاب بعد ثم يقطع رأسه ليلحق بالميت في عالم الفناء ويقوم بإيصال الرسالة؛ فإذا نسي رئيس القبيلة شيئاً كان يريد ذكره في الخطاب أرسل عبداً آخر بنفس الطريقة ليكون "حاشية" للخطاب الأول<sup>(١)</sup>.

لقد اعتقد الإنسان ردها من الدهر أن العنف الدموي ينبع من همجية التوحش الإنساني وتراجع الحضارة الإنسانية، وارتبط مفهوم القتل وال الحرب بصورة المجتمعات البدائية الهمجية التي تتأى عن معطيات الحضارة. ولكن الواقع يضعنا في صورة مشهد مذهل و مختلف لأن التدمير وال الحرب وهمجية القتل تنبع اليوم من صلب الحضارة ومن ينابيع الحضارة الغربية المفتونة بقوتها تحديداً. فالحضارة المادية المعاصرة تدق طبول الحرب وتجيش

(١) الأرقام الزعبي، رسائل إلى الموتى "فرويد- أشتاين- كوهين" ، الفكر السياسي، العدد الحادي عشر والثاني عشر، ٢٠٠٠ (موقع اتحاد الكتاب العرب- مجلة الفكر السياسي

. (<http://www.awu-dam.org/politic/ind-fkr13-14.htm>)

الجيوش وتبدع أدوات القتل وتوظف في ذلك أحدث معطيات الحضارة فنكا بالإنسان وقتلا في الإنسانية.

هذه الهمجية همجية العنف والقتل التي نشهدها اليوم والتي يندر مثيلها في تاريخ الهمجيات التي عرفتها الإنسانية، تدفعنا اليوم للتأمل في تاريخ العنف وفي صفحات الإنسانية الدموية باحثين فيها عن حكمة تاريخية، تجعلنا ندرك معها بأن الموت يولد الموت وأن الهمجية تقود إلى الجحيم. فالعنف يضعنا في مأزق عالم متواحش مجنون تقوده الحادثة الغربية اليوم بفنونها في القتل والإجرام إلى الهاوية وإلى الدمار. وهو دمار موجه من قبل الغرب وصهاينته وهو دمار حروب تعود إلى ما يبتدعه هذا الغرب من فتن وما يقدمه من سلاح وأدوات فتك وتدمير.

يسجل تاريخ العصور الحديثة اليوم ما يفوق حدود التصور والحصر من الوحشية الإنسانية التي تجلت في العنف والحروب والإبادة للبشر. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى إبادة الهندوسيين في القارة الأمريكية والإبادة المستمرة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني منذ النصف الثاني للقرن العشرين على مشهد ومرأى من العالم. فالعالم كما يرى كثير من المؤرخين يتحرك على عجلات العنف والعدوانية، وتشير الإحصائيات الجارية في هذا الميدان إلى أن الإنسانية قد شهدت خلال خمسة آلاف وخمسمائة سنة منصرمة خمسة عشر ألف حرب، قتل فيها ملايين من البشر، وإلى أن هذه الحروب قد أتت على ما لا يقدر إحصائيا من إمكانيات البشر المادية والعلمية والعقلية. لقد تسببت هذه الحروب في تدمير الثقافة الإنسانية بصورها المختلفة ولاسيما هذه التي تتجلى في الفنون والعلوم والأداب والطاقات الفكرية من كل حدب

وصوب. ففي القرن السابع عشر أهلكت الحروب 3.3 مليون إنسان، وفي القرن الثامن عشر قضت الحروب المدمرة على 5.2 مليون، أما في القرن التاسع عشر فقد زادت نسبة الهاكين في الحروب على 5.5 مليون إنسان<sup>(١)</sup>.

لقد دفعت هذه الحروب المجتمع الإنساني إلى الخلف مئات السنين من التطور الحضاري الذي كان في حيز الإمكان. ويمكن أن يشار في هذا الصدد إلى مأساة التاريخ الكبير التي تمثلت في غزو بغداد من قبل المغول في ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨م) والتي أدت تقافياً إلى إحراق مكتبات بغداد التي كانت تمثل حضارة الإنسانية المتقدمة في ذلك العصر. ويروي الرواة في وصف هذه المأساة الحضارية أن دجلة قد تخضب باللون الأسود لأيام عديدة تحت رماد مئات الآلاف من الكتب التي كانت تمثل ثروة إنسانية لا مثيل لها في التاريخ الإنساني المنصرم، حيث يفترض العلماء أن إحراق هذه المكتبات في هذا الغزو الهمجي قد أتى على حضارة إنسانية متكاملة. وفي هذا الصدد تقول روزا لوكسemburg 1871 - 1919: "إن التاريخ قد أثبت لنا أن جميع الحروب والحضارات التي قامت حتى الآن كان عمدتها لم الفقراء وجماعتهم، بدءاً من الملاليين التي سحقت تحت حجارة الفراعنة، ووصولاً إلى الملاليين الإفريقيين التي شرب فراعنة رأس المال في أوروبا وأمريكا نخب حضارتهم المزيفة في أسواق النخاسة والتي ستبقى جرحاً غائراً في ضمير البشرية"<sup>(٢)</sup>.

(١) سهيل العروسي، العنف مقدمات ونتائج، الفكر السياسي (اتحاد الكتاب العرب)، العدد الثالث عشر والرابع عشر ربيع وصيف 2001 ، (موقع اتحاد الكتاب العرب- مجلة الفكر السياسي <http://www.awu-dam.org/politic/ind-fkr13-14.htm>)

(٢) سهيل العروسي، العنف مقدمات ونتائج، الفكر السياسي المرجع السابق.

لقد عرفت أوروبا في القرن العشرين الذي ننتمي إليه سجلًا حافلاً للسياسات المجنونة والمرعبة، إذ يشار في هذا الخصوص إلى الحركة النازية والتزعة الفاشية والستالينية، وإلى مأسى العنف التي عرفتها أوروبا والعالم في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

فالحروب الإنسانية بمصابيحها وويلاتها قضت على ملايين البشر، ومن ثم أجهزت على ما لا يقدر من الطاقات البشرية الاقتصادية والعلمية. لقد نشب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وكلفت البشرية حياة عشرين مليونا من البشر<sup>(١)</sup>. أما الحرب العالمية الثانية التي أطاحتها النازية فقد أدت إلى خسائر بشرية هائلة، حيث بلغ ضحايا الحرب العالمية الثانية، وفقاً لدراسة أجراها أحد الباحثين، خلال السنوات العشر التالية للحربين العالميتين إلى ٦٥ مليون شخص، وهذا عدد مذهل بالمقارنة مع ضحايا الحروب التي دارت خلال القرون الثلاثة الماضية قبل الحرب العالمية الثانية والتي لم تتجاوز ٢٥ مليون شخص<sup>(٢)</sup>. وهناك آلاف المدن الصناعية التي دمرت كلها، وهناك آلاف العطاءات الفنية والفكرية والأوابد التاريخية والمتحف التي أزيلت من الوجود تحت تأثير لهب هذه الحرب.

ومازالت ذاكرة الإنسانية تكابد هاجس القابل النووي التي حولت هيرهوسيلما وناكازاكى اليابانيتين إلى رماد. ومع ذلك كله فإن دروس الحرب العالمية الثانية والأولى لم تمنع الدول اليوم من حشد كل الإمكانيات العسكرية

Zoya A. Malkova-, Les études sociales un moyen d'éduquer les enfants dans un esprit de (١) paix et de compréhension mutuelle entre les peuples, dans UNESCO: Manuel de l'UNESCO pour l'enseignement des programmes d'études sociales, NESCo, 1987, PP 93-120, P94.

-N.A. Kovalsky, Aspects sociaux de l'agression internationale, Revue inter.Sciences (٢) sociales, N 23, 1971, p79.

والاقتصادية والبشرية من أجل الاستعداد للدفاع أو من أجل التخطيط للسيطرة على مناطق في العالم والهيمنة على شعوبها.

يقول هانس كون ( Hans Kohn ) الذي شهد الحربين العالميتين " إن إنسان القرن العشرين أقل اطمئنانا وثقة من إنسان القرن التاسع عشر ، لقد شهد وعاش وعاني من قوى الشر التي عرفها التاريخ . وما كان يبدو أنه مضى وأنقضى عاد وأنبع من جديد ، كالتعصب في المعتقد ، والإيمان بالقيادة المعصومين ، والعبودية والمذابح ، واقتلاع جماهير بكمالها والبربرية التي لا ترحم " <sup>(١)</sup> .

لقد أدت حرب الخليج الأولى والثانية التي تمثلت في الحرب العراقية الإيرانية والغزو العراقي للكويت في عام ١٩٩٠ إلى تدمير المنطقة في المستوى الاقتصادي ، حيث كلفت هاتان الحربان بلدان الخليج مئات المليارات من الدولارات التي كان يمكن أن توظف في تحقيق ازدهار المنطقة العربية في مختلف جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية . وبضاف إلى ذلك أن هذه الحروب قد أدت إلى ضرب إمكانيات التضامن العربي ، وأوجدت شروخا نفسية وسياسية في المنطقة ، حيث تحتاج المنطقة إلى عشرات السنين للخروج من وضعية سياسية واقتصادية وثقافية مازقة تتميز بطبع التردي والإحساس بالضياع وانعدام الإحساس بالأمن .

ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى الوضعية المتفرجة التي تهدد كثيرا من بلدان العالم . فكثير من البلدان العربية وغيرها تعيش اليوم تحت

---

(١) عبد الله عبد الدايم ، التربية والقيم الإنسانية في عصر العلم والتكنولوجيا والمال ، المستقبل العربي ، السنة العشرون ، العدد ٢٣٠ ، نيسان / أبريل ، ١٩٩٨ ، (صص ٨٦-٦٤) ، ص ٧١ .

وطأة تهديد انفجار حروب أهلية وطائفية وإقليمية وعرقية ويمكن في هذا السياق أن يشار إلى وضعية السودان والجزائر والعراق وسوريا ولبنان وكوسوفو وقبرص واليونان.

فالحروب التي تأخذ من حيث المظاهر أشكالاً دينية طائفية تنتشر في بقاع واسعة من العالم وتشكل تهديداً متواصلاً للحياة البشرية، ويضاف إلى ذلك موجة التعصب العرقي التي تجد لها مكاناً في البلدان الغربية اليوم والتي تهدد الملايين ومن البشر والأطفال في العالم.

لقد أنفق العالم سنة ١٩٦٠ ما يزيد عن ٤٢٥ مليار دولار في بناء التكنولوجيا العسكرية وارتفع هذا الرقم إلى ٩٠٠ مليار دولار عام ١٩٨٥. لنتصور أن هذه الأموال وزعت على مشاريع التنمية في الدول الفقيرة. وبناء على ما سبق يترتب على البشرية أن تتخلص من كابوس الحروب ومن انتشار الأسلحة وتخفيض نفقات السلاح<sup>(١)</sup>. ويقدر الخبراء أيضاً أن ٢٥ مليون من البشر يرتدون الزي العسكري تحت السلاح، وهم على أهبة الاستعداد للقيام بأعمال التدمير بدلاً من البناء. ويضاف إلى ذلك أن الطاقة التدميرية للأسلحة الجديدة المتطرفة اليوم تعادل مليون وثلاثمائة ألف ضعف لقوة التدميرية للقنبلة النووية التي أُلقيت على مدينة هيروشيما أثناء الحرب العالمية الثانية<sup>(٢)</sup>.

إن نظرة واحدة يلقيها المرء على حجم النفقات المالية والاقتصادية التي توظف في خدمة آلة الحرب تبين لنا بكل وضوح أنه يمكن للإنسانية أن

(١) أحمد الخطاب، الصفات التي يجب أن تتسق بها التربية للاستجابة لمتطلبات القرن الواحد والعشرين، مكتب اليونيسكو الإقليمي، العدد ٣٥، يونيو، حزيران ١٩٨٩، ص ٢٩.

Zoya A. Malkova, Les études sociales Ouv.cité , P94 (٢)

تتجاوز آلامها ومصاببها وويلاتها لو أن جزءاً من هذه الأموال الطائلة (مليار دولار يومياً) تكرس للقضاء على المجاعات والأمية والفقر والفاقة التي تعانيها الشعوب الإنسانية في مختلف قارات الدنيا. وهناك من يقدر بأن هذه الأموال والثروات التي توظف في خدمة أدوات التدمير يمكنها أن يجعل من الإنسانية جنة حقيقة لسكنها وللأجيال القادمة.

لقد أدى وجود الأسلحة الإلكترونية والذرية والبيولوجية والكيميائية إلى تغيرات راديكالية في معطيات قضية الحرب والسلام. فالصراعات التي تتشب في مكان ما من الكره الأرضية يمكن أن تمتد إلى أمكنة أخرى ولذا فإن اللجوء إلى الحرب اليوم هو أشبه بعملية انتحار جماعية فاعلة.

ويأتي حجم المشكلات الاجتماعية التي يواجهها عالم اليوم بحجم التطورات المذهلة على المستوى العلمي والمعرفي والتكنولوجي للإنسانية. فالเทคโนโลยيا المتطرفة التي وجدت في الأصل من أجل خدمة الإنسان تحول إلى أداة الإنسان في عملية القتل والتدمير. ففي الحروب الأهلية والطائفية والعرقية والدينية توظف صفوه نتاج الإنسانية من التكنولوجيا في مجال الاتصال والتدمير والمعلوماتية. وبالتالي فإن التقى الكبير الذي شهدته الإنسانية في مجال الطاقة النووية يضع الإنسانية أمام خطر وجودي ومساوي لا يتمثل في الكوارث الخاصة بالحروب النووية فحسب بل في كوارث البيئة المتعلقة بالنفايات النووية والمشعة والتي بدأت تشكل واحدة من كبريات المخاطر التي تهدد وتنقض مضاجع البشر في عالمنا المتحول.

واليوم كما هو الحال بالأمس فإن الصراعات الدموية تشكل جزءاً من صورة الحياة اليومية للعالم. حيث لم يسبق أبداً للعنف أن شهد هذه

الفصول الدموية التي يعيشها عصرنا في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني السابقة.

وفي هذاخصوص تعلق مؤسسة أمنيستي إنترناسيونال Amnetey International، وهي مؤسسة للدفاع عن حقوق السجناء السياسيين: " أنه لم يسبق أبداً لغف بصورته أن شهد هذه الفصول الدموية في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني. وهناك اليوم اختصاصيون بالتعذيب يتلقون من بلد لأخر، لتدريب الجنود على أحدث فنون الإرهاب والتعذيب. وخبراء التعذيب هؤلاء لا يحتاجون أبداً إلى ما يتعلمونه من محقق محكمة التفتيش في العصور الوسطى، أو من الجنادل الهتلريين. وهناك دائماً من يشهد على فظاعة ما يستطيعونه من إيقاع الرعب والتعذيب بسجنهما، ويمكن هنا استعراض شهادات السجناء السياسيين البرتغاليين الذين حصلوا على حرفيتهم في ٢٥ ابريل ١٩٧٢، وشهادات السجناء الذين ينتهيون إلى منظمة الشباب المسيحي البرازيلي، أو السجناء الفيتاميين الذين سجنوا داخل الأقباط الرهيبة الأمريكية الملقبة بأقباط النمور. ولا ننسى اليوم سجون "الغوانيما" الرهيبة التي تشكل أكثر أقباط هذا العالم رباعاً وفكراً بأنباء الشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها.

ويبدو اليوم أن الأنظمة لفاسية لا تحكر بمفردها التفتيش المتطرفة للتعذيب. فعلى سبيل المثال احتل الاتحاد السوفييتي سابقاً مكان الصدارة في المرحلة الس탈ينية وفيما بعدها في تطوير طرق التعذيب وأساليبه. وتشير الشهادات التي ترداد تدريجياً على أن الرؤوس العنيدة - الأشخاص الذين يرفعون أصواتهم مطالبين باحترام حقوق الإنسان - تعذب بتوسيط اختصاصيين في مجال علم النفس<sup>(١)</sup>.

---

V.Boukovski, Une nouvelle maladie mentale en U.R.S.S.: L'opposition. Tr. Le seuil A. (1)  
Martin, Paris 1974.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى بعض الممارسات التي تتنافى مع مبدأ حقوق الإنسان والتي تتصل بالتسתר على مجرمي الحرب وإغفال جرائمهم التاريخية وذلك من قبل مؤسسات تدعى السهر على قانون العدالة والحق، ففي ٢٥ أيلول / سبتمبر ١٩٧٤ أبطل القاضي الفيدرالي الأمريكي W.Calley قرار المحكمة العسكرية التي حكمت على الملازم الأول كاللي قام بإبادة أربعينات وخمسين طفلًا وأمرأة وشيخاً في إحدى قرى جنوب فيتنام عام ١٩٦٨ . لقد حكم على هذا المجرم في البداية بالسجن مدى الحياة، ثم عدل الحكم ليصبح عشرين عاماً ثم إلى عشر سنوات من السجن وذلك بناء على حكم عدم توفر الأدلة، حيث يقول قاضي التحقيق إن كاللي لم يتلق تعليمات عسكرية كافية تجعله قادرًا على رفض أمر عسكري غير شرعي.

إن تطور القوى العسكرية يجعل من الصراع بين الأمم أكثر قدرة على الدمار والموت والإفقاء. كتب موريس D.Morris وهو عالم حيوانات شهير يقول: إن أقل ما يمكن أن يقال اليوم هو إننا أصبحنا في ورطة رهيبة، وأنه لمن المحتمل جداً، بدءاً من هذه اللحظة نفسها حتى نهاية القرن الحالي أن نفني بعضنا البعض<sup>(١)</sup>. وفي محاضرة له بعنوان: زمن نهاية العالم، يعلن إيمانويل مونيه Immanuel Monier: "أن الإنسانية قد وصلت إلى مرحلة نضجها اليوم، وكانت الإنسانية قبل هiroshima محكومة بالمستقبل، أما اليوم وبعد ظهور الأسلحة الهيدروجينية، فإن الإنسانية تجد نفسها أمام خيارين هما العدم أو الحياة، وهو خيار يفرض على الإنسان أن يصبح أكثر إنسانية. ويعلم الجميع اليوم أن العداون والتعذيب ليسا حكرًا على الطغاة والدول والأنظمة

---

-Morris. D., Le signe nu, Livre de Poche, Crasset, Paris, 1968, P.182. (١)

الشمولية بل يأخذ صورة عامة. فالเทคโนโลยيا الحداثة التي توجد اليوم مع عصابة من القتلة وال مجرمين هي أكثر فعالية وقوة تدميرية من هذه الأدوات الحربية التي يمتلكها أبطال الأساطير.

صور العنف اليومية التي نطالعنا في كل يوم عديدة ولا حصر لها مثل: العنف في الجزائر، حرب البوسنة، الحرب الأهلية في أفغانستان وال الحرب على أفغانستان، والجرائم التي تفوق حدود الخيال التي ترتكب بحق الشعب الفلسطيني. والرعب الذي يسود بعض المدن الكبرى (المواطن الذي يسكن في نيويورك أو واشنطن لا يجرؤ على الخروج من مسكنه بهدوء فيما بعد الساعة العاشرة مساء). والحق يقال انه لا يمكن لنا أن نحصي الأشكال الجديدة للعنف نظراً لاتساعها وشمولها. فمشكلة العنف تشهد نمواً كبيراً، وتعاظماً مستمراً في المستوى الإنساني، فهناك ملايين الأفراد الذين يجدون مصرعهم تحت تأثير الغارات والإبادة الجماعية والحروب والطائفية والمجازر السياسية. وفي هذا الصدد تقدم أعمال كاستون بوتول Gaston Bouthoul وهو عالم اجتماع الحرب، صورة مريرة لهذه الشهية الخاصة بالتدمير عند الإنسان. وما هو مثير للدهشة هو أن المجتمعات الأكثر تطوراً هي المجتمعات الأكثر نزوعاً للتدمير في كل المستويات وذلك بدءاً من القياديين حتى أبسط المواطنين.

هذا وتبيّن الإحصائيات عام 1980 أن مخزون السلاح النووي قد بلغ أكثر من خمسين ألف شحنة تفوق قدرتها التفجيرية الإجمالية خمسة آلاف مرة قدرة المواد المتفجرات التي استخدمت خلال مجل مجمل تاريخ الحروب على الأرض، وبفرض حدوث كارثة نووية، سيتحول نصف البشرية إلى عصف

مأكول، وسيقعد النصف الآخر كسيحاً يتلظى بآثارها. فكل فرد منا أربعة أطنان من المتفجرات الذرية، وهي تحمل طاقة تكفي لإرسال كل واحد من سكان الأرض في رحلة فضائية خارج كوكبنا<sup>(١)</sup>. وإذا كانت هذه الإحصائية النووية المرعبة في هذا الحجم فكيف لنا أن نتصور هذه الكميات المذهلة بعد مرور ربع قرن على هذه الإحصائية. وليس خافياً اليوم على أحد دخول عدد كبير من الدول في النادي النووي ولا سيما إسرائيل والهند وباكستان.

فالأنظمة الاستبدادية، والفووضى السياسية العدمية، واستمرارية الحروب المحلية، وخطر التدمير الجاثم على صدر الإنسانية، مسائل تطرح نفسها في مركزية التفكير الإنساني المعاصر. ومن المدهش اليوم أن نجد بأن هذه المشكلات تمنع عدداً من الفلاسفة ورجال الدين من الاستمرارية في صفاتهم الفكري من أجل التخطيط لما بعد هذه الحروب والصراعات. في هذه الاتجاه يعلن رومانو كياردينى Romano Guardini: بأن جوهر عصرنا ومهمته الأساسية تكمن في تنظيم القوة الكامنة فيه بطريقة يستطيع فيها المرء أن يستخدمها بعقلانية و موضوعية<sup>(٢)</sup>.

ومن الملفت للانتباه أيضاً أن أكثرية هذه الحروب والكوارث يجري في البلدان النامية أيضاً وقلما نجد بعضها في البلدان المتقدمة صناعياً وعلمياً. ويمكن لنا أن نذكر على سبيل المثال الحروب التي دارت وتدور من مثل:

(١) نوماس بلاس، ستانلي ميلجرام، ليونارد بيركوتز، ريتشارد جوارنسن: العنف والإنسان، أربع دراسات حول العنف والعدوان، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، شباط ١٩٩٠، ص.٧.  
Guirdini. R., La puissance, Seuil, Paris, 1954 , p.9. (٢)

الحرب العراقية الإيرانية، وال الحرب الخليجية الثانية (الغزو العراقي للكويت) وال الحرب الأهلية اللبنانية، وال الحرب العربية الإسرائلية، وال الحرب الأهلية الصومالية، وال الحرب العراقية الأخيرة، و حركات الإبادة الجماعية التي تشهدها الجزائر وغيرها، وهي كما يتضح من أسمائها ويات عربية تضع العرب والأمة العربية في مواجهة مرحلة دامية ربما لم يسبق لها أن شهدتها أبداً في تاريخها القريب والبعيد. وفي ذلك إشارة إلى الأعباء التنموية العربية التي تجعل العرب وهم أغني أمم الأرض أمّة تعيش أزمة وجود وتنمية بالغة الخطورة والأهمية.

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: هل من قبيل المصادفة أن تكون البلدان العربية والإسلامية هي موطن أغلب هذه الحروب الأهلية الدموية والممارسات الإرهابية مثل: الجزائر، الصومال، العراق، لبنان، تركيا، أفغانستان، الباكستان، الشيشان، مصر، فلسطين، إيران في حربها مع العراق... الخ.

ولا بد في هذا السياق من القول بأن هذه الحروب ولا سيما الأهلية والطائفية منها تعود بصورة رئيسية إلى غياب الحياة الديمقراطية، وإلى غياب مفاهيم حقوق الإنسان في البلدان التي تندلع فيها، وغياب الديمقراطية يعني في النهاية الظلم والاستبداد والقهر الذي يؤدي إلى جحيم الحرب والقتال وحمامات الدم من أجل استعادة الحقوق ومن أجل العدالة الاجتماعية. ومن يتأمل في وضعية هذه الحروب والنزاعات يجدها غالباً ما تكون في البلدان التي تغيب فيها القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان وفي البلدان التي تخيم فيها أنظمة ديكتاتورية وشمولية تقوم على أساس قيم الاغتصاب والقهر والقوة والعدوان.

لقد علمتنا التجربة أن أغلب البلدان الديكتاتورية والشمولية مرشحة لحروب أهلية وطائفية دموية لا مفر منها. ومثال ذلك ما حدث في إيران أثناء حكم ديكتاتورية الشاه، وما حدث ويحدث في العراق في مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، وما حدث في لبنان، وما يجري في الجزائر وأفغانستان والباكستان، وبلاد النزيف الدموي في تركيا وغيرها من البلدان التي تعتمد الأنظمة الديكتاتورية في الحكم والتي تعمل على تغييب كل إمكانيات حقوق الإنسان. وهذا يعني أن البلدان الديمقراطية التي تسود فيها قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان وقيم التسامح هي البلدان التي تمتلك الحصانة السياسية والثقافية ضد قيم الحرب والفناء. ولذلك فإن طريق مختلف البلدان إلى السلام هو الطريق إلى الديمقراطية التي تعني العدالة والمساواة وقيم الحق والخير والأمن والسلام وحقوق الإنسان.

إن الحروب التي نشبت بزعامة بعض المغامرين تحت تأثير مجموعة من الأوهام الأسطورية من أجل السيطرة على العالم، ومن أجل المزيد من القوة والسلط، أدت بالإنسانية إلى تصف وتجسد في ويلات الحروب الأهلية والتصفيات العرقية، والحروب الكونية التي أتت على آفاق الحلم الإنساني في مزيد من التقدم، ومن أجل المزيد من القدرة على ضبط البيئة والسيطرة العلمية المنظمة على مقدراتها، وتحقيق السلام والأمن للوجود الإنساني برمته.

وفي إطار هذه الدوامة المرعبة من المخاطر والمشكلات يعاود الإنسان تنظيم نفسه والنظر في دفاتر حساباته الجديدة من أجل حياة تتقلص فيها دواهي الخطر الوجدي الجاثم على صدر الإنسانية. وعلى رغم الطاقات الأسطورية التي يملكها الإنسان لا يجد أمامه من أجل المواجهة غير إمكانيات

التنمية Le développement والتي تشير إلى منظومة من الجهود الإنسانية السياسية والإدارية والثقافية والاقتصادية المنكاملة الساعية إلى حماية الإنسان والنهوض به إلى أرقى مستويات الوجود والتكييف والاستمرارية.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى أعمال علمية هامة تناولت قضية العنف وأكبت على أهمية عقلنة هذه الإشكالية على نحو موضوعي ومن هذه الأعمال يشار إلى: ميرلو بونتي، في كتابه الإنسانية والرعب Humanisme et Terreur، وسارتر Sartre في كتابه الأيدي الفقرة Les mains sales، وميشيل فوكو Michel Foucault في كتابه تمجيد الخطاب الممنوع Eloge des Discours interdit.

وتشهد اليوم الساحة العلمية تزايد الأبحاث والمؤتمرات والكتب المكرسة لدراسة العنف ولاسيما خلال السنوات الأخيرة بوصفه أحد الموضوعات المعاصرة الهامة. فالأطباء والبيولوجيون وعلماء النفس ينكبون اليوم على دراسة مسألة الشر والعنف وتفرعاته المعاصرة. ويشهد الماء في هذا السياق نوعاً من التوجه إلى دراسة الخلفية السينكولوجية والبيولوجية لهذه المشكلات القديمة. وفي هذا السياق يذهب لورنر Lorenz في كتابه: العدوانية: تاريخ طبيعي للشر، وبعض الباحثين الذين يدرسون هذه المسألة من خلال العمليات الفيزيائية والبيولوجية، إلى الاعتقاد بأن العدوان نشاط لا يمكن تقاديه، وأنه فعل سوي وطبيعي. وهذه هي الفكرة التي يجلبها كتاب ستور A.storr الذي يأخذ العنوان التالي: العدوان ضرورة L'Agressivité nécessaire.

ويمكن للبحث العلمي في هذا السياق أن يشكل منطلقاً أخلاقياً لنبريرات أخلاقية جديدة. بإرجاع المشكلة إلى عوامل طبيعية خالصة يؤدي إلى إسقاط بعض الاعتبارات الأخلاقية. ولكن مهما يكن الأمر فالعنف يشكل مسألة

أخلاقية وسياسية، وهذا يعني أن العلم وحده لا يستطيع أن يوجد لهذه المسألة الحلول الكاملة، وهذا ينسحب على كثير من المشكلات النفسية والاجتماعية الأخرى التي تحمل وجهاً أخلاقياً.

فالابحاث الاجتماعية معنية بأن تبرز أهمية العنف وخطورته، ويجب ألا تُفوّت فرصة أبداً في الإلحاح على هذه الأهمية والخطورة. وتأسисاً على ذلك يجب أن تأخذ هذه القضية مركزية خاصة في مجال الابحاث النفسية والاجتماعية والأنثربولوجية.

وإنه لمن المؤكد أن الأعمال الجارية في هذا السياق لا تستطيع وليس لها أن تقدم حلولاً لمشكلة الحرب والفاشية والإرهاب السياسي. ولكن يمكن لهذه المبادرات السيكولوجية والسوسيولوجية أن تكشف عن العلاقات التي تسود هذه الظاهرة، كما يمكنها أن تقدمها في خلفياتها التاريخية وأن تحدد العوامل والمتغيرات التاريخية الكامنة في أصل حدوثها.

ويمكن القول في هذا السياق إن إحدى خلاصات الفكر الفرويدي تكمن في تأكيد الاعتقاد بوجود دافع عدواني في أصل العنف وأشكال التدمير. وهذه الأطروحة المبنية بالنتائج النظرية والتطبيقية تعزز مشروعيتها اليوم بالاكتشافات الحديثة في مجال علم النفس الحيواني، وعلم النفس الفيزيولوجي.

## المبحث الثاني :

### مفهوم العدوانية: حدود وتخوم

تفيض اللغة العربية بالمفردات الدالة على العدوانية والعنف والإرهاب، ومن يستلهم اللغة العربية يجد فيها مذاً أدبياً غامراً من الكلمات والمفردات التي تشير إلى ظاهرة العدوان مثل: الاضطهاد، والتعصب، والتطرف، والعنف، والتغلب، والعدوان، والإرهاب، والقهر، والإكراه، والسلطة، والاستبداد<sup>(١)</sup>. وهذا الغنى اللغطي والاشتقافي الكبير في اللغة العربية مصحوب بفقر كبير في مستويات التحديد الإبستيمولوجي لهذه الكلمات. وبعبارة أخرى بقيت هذه المفردات كلمات وألفاظاً ولم تتحول إلى مفاهيم سوسيولوجية واضحة الدلاله والمعنى. وهذا الضعف في التحديد السوسيولوجي والإبستيمولوجي لهذه المفاهيم في لغة الصدام يشكل اليوم تحدياً فكريأً كبيراً يفرض على المفكرين العرب العاملين في العلوم الإنسانية بذل جهود كبيرة في تحديد هذه المفاهيم والانتقال بها إلى مستوى المفاهيم المحددة التي يمكنها أن تشكل منطلقاً

---

(١) علي أسعد وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٢٢.

فكرياً يمهد لتطوير التفكير الاجتماعي العربي في مختلف المستويات المعرفية المعاصرة.

ومع تنوع دلالة ومقاصد كل مفهوم من المفاهيم التي تدخل في دائرة العنف يلاحظ غالباً في الاستخدام الجاري أن كل مفهوم من هذه المفاهيم قد يوظف في مكان الآخر لأن الخط الفاصل بين هذه المفاهيم لم يحدد علمياً أو اصطلاحياً في اللغة العربية<sup>(١)</sup>. ومن يتبع الأنبيات الاجتماعية والسياسية سيجد أنه لا يوجد حد فاصل بين هذه المفاهيم لأن الاستخدام الجاري لا يميز بين هذه المفاهيم إلا باعتبارات الموضة العلمية أو الثقافية الجارية التي تفرضها أحداث سياسية وثقافية معينة. فمفهوم الإرهاب مثلاً لم يكن شائعاً في الاستخدام كما هو الحال اليوم حيث أصبح موضع سياسية وفكرية وإعلامية يستخدمه الجميع دونما تمييز بين دلالته المعرفية ودون تحديد الأبعاد التي تفصله عن غيره من المفاهيم الأخرى السائدة التي تنتهي إلى العائلة نفسها.

ومن أجل أن نكون موضوعيين في تناولنا لهذه المفاهيم يمكن لنا أن نقول بأن أي منها يمكن أن يوظف عملياً في مكان الآخر، ولا سيما مثل كلمات: القمع العدوان الإرهاب السلط العنف. فهذه الكلمات تستخدم في مستوى واحد تقريباً. ولا نعتقد بوجود محاولات سوسيولوجية عربية متطرفة للفصل بين هذه المفاهيم وتحديدها<sup>(٢)</sup>. فمفاهيم القهر والإرهاب والعنف

(١) انظر: المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية: ظاهرة العنف، العدد ١٣٢، اليونيسكو، مركز مطبوعات اليونيسكو، القاهرة، ١٩٨٩.

(٢) علي أسعد وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

والاعتداء والقمع تدخل في بنية مفهوم العدوانية التي تتمثل في ممارسة  
البطش والقوة والإكراه والإرهاب والقمع<sup>(١)</sup>.

لقد ظهرت الكلمة الفرنسية العدوان Agression منذ القرن الرابع عشر، بينما شاع حديثاً استخدام مفهوم العدوانية Agressivité، وهذه الكلمة لم تذكر في الطبعة الثامنة من القاموس الأكاديمي لعام ١٩٣٢. ولكن خزائن اللغة الفرنسية تشير إلى استخدام هذا المفهوم في عام ١٨٧٣ وذلك في جريدة الكونور Journal Conaut.

أما في اللغة الإنجليزية فقد ظهرت كلمة: عدوان Aggression في القرن السابع عشر، وإن هذه الكلمة اشتقت من اللغة الفرنسية. وأنه لمن الطريف في الأمر أن نلاحظ في القاموس الانجليزي The Oxford English Dictionary أن الاستخدام الأول لكلمة Aggressiveness بدأ في عام ١٨٥٩، وذلك في مرحلة محاولة إنقاذ أوروبا من العدوان الفرنسي.

ونلاحظ الشيء نفسه أيضاً في اللغة الألمانية. فمفهوم العدوان Agression والعدوانية Agressivité حديثاً العهد، إذ يلاحظ غياب هذين المفهومين في أكثريّة المعاجم اللغوية الألمانية.

---

(١) لم نجد في القواميس العربية التقليدية (العين، والقاموس المحيط، ولسان العرب، والمصباح المنير، والمغرب، ومختر الصاح، ومعجم البلدان، ومعجم ما استعجم) كلمة "عدوانية" وهي الكلمة التي تترجم الكلمة الفرنسية Agressivité وهي الكلمة التي وظفها جبور عبد النور و سهيل إدريس في قاموسهما المنهل. انظر في هذا الصدد: جبور عبد النور، سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي عربي، دار العلم للملاتين، ودار الآداب، بيروت ١٩٨٦، ص ٢٩.

هذا ويبين النصي اللغوي لكلمة اعتدى الفرنسية Agresser أنها مشتقة من اللاتينية (Adgradi) والتي تعني: يسير نحو، أو يسير ضد، يباشر. ومع ذلك فإن المعنى الاستعاقى لا يكفى أبداً لتحديد معنى المفهوم ولا بد من اختبار التوظيفات اللغوية الجارية للمفهوم والتجارب المعاشرة التي يمكن إرجاع المفهوم إليها.

ومن هذا المنطلق تهض أسئلة جوهيرية حول طبيعة العدوان والدلالة التي يحملها: فهل يمكن أن يعد الطفل الغيور الذي يهاجم أخيه الأصغر عدوانياً؟ هل تعد لعبة الشطرنج من أجل الانتصار، أو منع أحد الناس من تسميم نفسه، أو قتل حيوان في مسلخ، هل تعد هذه الأنماط السلوكية نوعاً من السلوك العدائي؟ ماذا نعني إذن بكلمة يعتدي Agresser؟ فهذه الكلمة كما يبدو غامضة الدلالة ويجب أن تصقل في ضوء المعاينات الفكرية النقدية لهذا المفهوم.

ومن أجل مقاربة هذه المسألة بصورة موضوعية يمكن العودة إلى تجارب عالم النفس الألماني هيربرت سيلج Herbert Selg الذي طلب إلى عينة تتكون من ثلاثين طالباً الحكم على ستة مواقف منها، على سبيل المثال: ببير يمزق صورة خطيبته التي فسخ خطبته منها. وكان المطلوب من الطالب أفراد العينة تقدير إذا كان ببير عدوانياً أو غير عدواني. وقد خرجت الدراسة بنتائج هامة منها: أن هناك تعارضًا كبيراً بين آراء الطلاب فيما يخص جميع جوانب الأسئلة المطروحة. ومنها إجابتهم عن سؤال هل يعد تمزيق صورة الخطيبة عدوانياً؟ حيث أجاب ١٤ طالباً بأن هذا السلوك ليس عدوانياً وذلك مقابل ١٧ اعتبروه سلوكاً عدوانياً.

ومن أجل تطوير ملامح هذه الإشكالية يمكن لنا أن نستعرض الموقف المعجمي من مفهوم العدائية، ويمكن استعراض موقف القاموس الفرنسي

الذي قارب هذا المفهوم وقدم بعض التحديدات الخاصة للفصل بين Littré مفهوم العداون Agression ومفهوم الهجوم Attaque. يبين القاموس أن كلمة هجوم تتطوّي على فكرة المعركة والصراع والمقاتلة، وهو صراع يبدأ من جهة واحدة. ولكن كلمة Aggression (العدوان) تتطوّي على مبدأ الصراع. ولكن كلمة العداونية يمكن أن تكون شيئاً آخر غير الهجوم وهذا يعني أن العداونية تتمثل في نزعة كامنة قائمة في العمق عن حالة كمون وهذه النزعة عندما تحول إلى واقع تحول إلى عداون، فالعدوان هنا ينبع من النزعة العداونية. فالإنسان الهدى الساكن قد يbedo مسالماً ولا نعرف إذا كان يمتلك نزعة عداونية. وهذا يعني أن كل عداون يرتبط بعداونية ولكن النزعة العداونية لا ترتبط بالعدوان بالضرورة.

لقد أكد كونارد لورنر وهو واحد من علماء النفس الذين شغلوا بقضية العداونية والعنف "أن الناس المفطوريين على التسامح والذين لا يستطيعون حتى معاقبة طفل شرير يمكنهم إطلاق الصواريخ وإلقاء الأكdas المكذسة من القنابل المدمرة على المدن والناس والأطفال وقتل مئات وألاف الأطفال في أفران اللهب. ويضيف لورنر "إن كون الناس العاديين الطيبين هم الذين يفعلون ذلك يحمل من الغرابة والمهول ما تحمله أية فطاعة شيطانية من فطاعات العرب<sup>(١)</sup>. وهذا قد يعني بأن النزعة العداونية كامنة في أعماق الإنسان وهي قد تتحرك عندما يستوجب الموقف مثل هذا التحرك.

(١) علاء اللامي، خرافية العنف الدموي في ضوء العلوم الحديثة: رؤية تحليلية في غرائز التدمير والانتقام والحروب، مجلة الزمان الجديد، العدد ٣٦، ديسمبر/كانون الأول، ٢٠٠٢، صص ٧٠-٦٨، ٨١.

وكمما يتضح يرکز القاموس لیتريه الفرنسي هنا على البعد الأخلاقي والقانوني لكلمة العدوان، وتأسیسا على ذلك يمكن القول بأن بعض النشاطات قد تأخذ طابعا عدوانيا مثل إحداث ضجة ما. وهذا بالضرورة يعني أن العدوان يتحدد وفقاً للمعايير المستخدمة والدلالة الشخصية لمن يحدده. فهناك من ينظر إلى المدرس الذي يتسبب لطلابه بالإخفاق، أثناء الامتحان، بأنه عدواني، وبالتالي فإنه يمكن أن نلمس الطابع العدواني للمدرسين إزاء النظام التربوي عندما يعطي هؤلاء درجات امتحانيه مرضية لجميع الطلاب. وتأسیسا على هذا التحليل يمكن القول بأن تحديد معنى العدوانية ومدى حضور هذه النزعة في السلوك أمر لا يسهل تحقيقه وهو مرهون بالطابع الأخلاقي والخلفية القيمية التي تحدد هذه السلوك.

ويمكن هنا الإشارة إلى العمل الضخم لمؤلفه أرونوتو Aroneanu والذي يشتمل على أعمال اللجنة التنظيمية للأمم المتحدة المكلفة بإيجاد تعريف للعدوانية في مجال القانون الدولي. والمسألة هنا تجسد قضية هامة تتعلق بشروط تحديد مفهوم الجريمة الدولية وذلك لبناء قانون جرائي دولي. ومن هذا المنطلق استطاع أعضاء اللجنة الحقوقيون التمييز بين أشكال متعددة للعدوان ولاسيما العدوان غير المباشر (على سبيل المثال: التهديد باستخدام القوة أو تعزيز بعض الحركات السياسية). ولقد أشار بعض أعضاء اللجنة إلى أن العدوان يمكن أن يتم عن طريق الإهمال أو التجاهل. وبعد سبع سنوات من الجدل والبحث (من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٧) لم يستطع الخبراء الوصول إلى تعريف دقيق يشمل مختلف جوانب المفهوم وتنظم فيه آراء جميع المتخصصين. وبختتم أرونوتو Aroneanu في خاتمة هذا الكتاب الضخم الذي يتألف من ٤٠٠ صفحة قائلاً: كيف يمكن لنا أن نعرف العدوان؟ ويجب

إن الشخص الذي نطلب منه تعريف الفيل سيجيب: لا أستطيع أن أعرفه ولكنني أعرف بأنه شيء ضخم<sup>(١)</sup>.

لذهب الآن باتجاه علماء النفس، لنرى ما إذا كان لديهم اتفاق حول تعريف العداون. يشار في هذا السياق إلى كل من دولارد Dollard وMiller Miller في كتابهما المشهور الإحباط والعدوان Frustration and aggression حيث يعرفان العداون بأنه " فعل هدفه إيقاع الأذى والضرر بكيان ما"<sup>(٢)</sup>. ويمكن أن نجد هذا التصور المجاز عند آرنولد بوس Arnald Buss الذي يتوجب أن يتحدث عن هدف أو غاية حيث يعرف العداون انه استجابة تطلق العناد لمتغيرات مؤذية موجهة ضد شخص آخر، ويعرفها في مساق آخر بأنها عادة الهجوم<sup>(٣)</sup>.

وحيثاً يمكن الإشارة إلى تعريف سيلج H.Selg في كتابه الهام تشخيص العداونية Diagnostic de l' agressivité والذي يأخذ فيه الاتجاه نفسه وذلك حين يعلن بأن " العداونية هي الفعل الذي يطلق التزعات الدمرة ضد كيان ما أو

(١) Augene Aroneanu, La définition de l' agression, Les Ed. Internationales, Paris,1982 ,p 405.

(٢) الإحباط Frustration مفهوم ينطوي مع مفهوم الكبت Refoulement ومن أجل الدقة العلمية يجب التمييز بين الكبت والإحباط فبينما يشير الكبت إلى العملية التي يتم بموجبها نفع الرغبات التي لا يمكن إشباعها إلى ساحة اللاشعور Inconscient فإن الإحباط مفهوم يشير إلى الحيلولة بين الفرد وتحقيق رغباته دون أن تصبح هذه الرغبات لا شعورية، أي أنها تبقى ماثلة في ساحة الشعور مع ما يراقبها من أحاسيس الخيبة والحرارة.

Dollardj., Doob L, Miller N.,Mowrer Q., SEAR R.,, Frustration and Aggression, Yale (٣)  
University Press, 1947,p11.

Buss A.H. The Psychologie of Aggression, J.Wiley,n Y.Buytendijk, F.J.J., 1961.p1.(٤)

شيء ما". وفي هذا السياق يعرف دانيال لاكاش Daniel lagache في مقالة له عن العوانية عام 1960 العوان بأنه " فعل أو توجه نحو الفعل هدفه التدمير الكلي أو الجرئي الأدبي أو الصوري لموضوع ما"<sup>(١)</sup>. أما العوانية Agressivité فهي بالنسبة للعوان كالحالة الكمونية بالنسبة للفعل.

ويعرف كل من لابلانش Lapalanche وبونتاليس Pontalis في قاموسهما "مفردات التحليل النفسي" "Vocabulaire de la psychanalyse" أن العوانية "نزعة أو مجموعة نزعات كتنظيم في سلوك حقيقي أو هوامي"<sup>(٢)</sup> يؤدي إلى تدمير الآخر وإيذائه وعارضته وإهماله "<sup>(٣)</sup>".

ويجري الاتفاق بين المفكرين على التمييز بين مفهومي العوان Aggression والعوانية Agressivité، فلمفهوم الأول يشير إلى فعل واقعي، بينما يشير الثاني إلى نزعة عوانية. ولأن الأمر يتعلق بتحديد دقيق لكل من المفهومين يمكن أن نلاحظ وجود اختلافات في التشديد أو في التصور الخاص بهما.

وإذا كان بعض علماء النفس قد نجحوا في الوصول إلى تعريف مشترك فإنه ليس مؤكداً بأنهم يتفقون بسهولة كما يلاحظ عند رجال القانون ولا سيما قانونيو منظمة الأمم المتحدة.

---

(١) Lagache Daniel, Situation de l'agressivité, Bulletin de Psychologie ,Xiv(1) 1960 ,PP 99. 112, p 100.

(٢) الهوام Fantasme هو نوع من السيناريو الحسي البصري أو الحركي الذي يخترق المجال الإدراكي بسرعة خاطفة تماما كومضة برق وهو يمثل وضعيات ومشاهد ومخاوف تبدو دخيلا على الذهن وكأنها ليست نابعة منه. راجع في هذا الخصوص: مصطفى حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور ، معهد الإنماء العربي بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٨٠.

Labalanche J. et Pontalis J.B., Vocabulaire de la psychanalyse ,P.U.F.,1967. (٣)

لا تبدو لنا هذه التعريفات التي سقناها حتى هذه اللحظة كافية، وذلك باستثناء تعريف لابلانش وبونتاليك. وفي هذا الخصوص فإننا لا نلاحظ مثل هذا التماسك في تعريف بوس Buss، إذ كيف يمكن الحديث عن عدوان دون نية في العدوان؟ فال فعل الذي يتم سهواً أو اتفاقاً - على الأقل إذا لم يكن فعلاً ناقصاً بالمعنى الفرويدي - ليس عدواناً بل هو حادث. فالتربيت على ظهر شخص ما يبدو أمراً عدوانياً أو فعلاً تودياً وذلك وفقاً لنية الشخص الذي يقوم بالفعل، ووفقاً لدرجة العلاقة التي تربط بين الشخصين، أو وفقاً للوسط الاجتماعي الذي يعيشان به. فالتأثير الناجم عن فعل ما لا يعد كافياً لتحديد هوية الفعل إذ لا يمكن أبداً الاستغناء عن العودة إلى المحرض أو السبب.

على الرغم من انتماء كل من سيلج Selig ودولار Dollard إلى المدرسة السلوكية فإنهما لا يستطيعان الاستغناء عن مفهوم الغاية والهدف في تناولهما لمسألة العدوانية. وعلى الرغم من أهمية ما ذهبا إليه في هذا المسار فإننا لا نستطيع أن نكتفي بتعريفهما وذلك لأن حالات العدوان لا تهدف جميعها إلى التدمير. فالأب المتعب الذي يرسل ابنه إلى صالة اللعب لا يعبر عن نزعة عدوانية مدمرة، فسلوكه يهدف فقط إلى المحافظة على هدوئه وإكراه المتطفلين على الخروج من المكان. ومع ذلك يمكن تقويم سلوكه بأنه عدواني بالمعنى الخاص لكلمة.

ولا يبدو لنا أيضاً إن تعريف لاكاش Lagache كامل أيضاً. فهناك أفعال تهدف إلى التدمير دون أن تكون أفعالاً عدوانية. ومن هذا القبيل عندما يتم حرق الأوراق القديمة التي فقدت قيمتها. وكما ذكرنا منذ قليل فإن بعض السلوك الذي يبدو عدوانياً لا يتضمن نية التدمير أو إحداث ألم للآخرين.

وهنا لا يمكن لنا بسهولة أن نفصل بين العدوانية ومحرضاتها من جهة، وبين الأشكال الأخرى للسلوك من جهة أخرى، إذ يمكن للفرد أن يكون عدوانياً بطريق مختلفة، حيث تأخذ هذه السلوكيات العدوانية أشكالاً مختلفة بداعياً من نسيان موعد ما، أو رفض مساعدة، أو القيام بفعل السرقة، حتى إلى حد قتل الآخرين. ومن جهة أخرى فإن السلوك نفسه الذي يوصف بأنه عدواني يمكن أن يكشف عن غابات مختلفة جداً مثل: الانتقام، أو إبعاد أحد المنافسين، أو تعويض مشاعر العدوانية، أو إبعاد أحد الشهود المزعجين وحماية النفس، أو الدفاع عن الوطن.... الخ. وحتى عندما تكون النتيجة الوضعية واحدة يمكن الإشارة إلى عمليات نفسية متمايزة وفقاً للأشخاص والظروف. وذلك كله يعني أنه لا يمكن إعطاء تعريف واضح ودقيق لمفهومي العدوان والعدوانية، وهي مفاهيم تتضمن على سمات خادعة. ولن يدهشنا بعد ذلك كله أن نجد بعض علماء النفس الذين يتمتعون عن إعطاء تعريف محدد للعدوانية.

كتب جونسون R.Johnson، وهو من كبار الباحثين عرف بإنتاجه الكبير والنوعي حول هذه المسألة يقول: " لا يوجد هناك أبداً أي نوع من السلوك لا يمكن أن يعد سلوكاً عدوانياً، ولا توجد أيضاً عملية سلوكولوجية واحدة غير مماثلة للعدوان"(<sup>١</sup>). وهذا هو الشيء الأكثر أهمية في مسألة العدوان، حيث يقتضي الأمر أن يعمل الباحث على إدراك العدوان وتحليله في مستويات عديدة(<sup>٢</sup>). ويضيف جونسون وهو مختص في علم نفس الحيوان أن هذه الحالة قابلة للملاحظة التجريبية. فالباحث العلمي يمكنه في الواقع أن يكتفي بتقديم

-Augene Aroneanu, La définition de l' agression, Les Ed. Internationales, Paris,1982, p120. (١)

Buss A.H. The Psychologie of Aggression, J.Wiley,n.Y.Buytendijk, F.J.J., 1961:

Johnson R., Aggression in man and animals ,Saunders, Philadelphia, 1972,p8. (٢)

تعريفات إجرائية، وهي تعريفات تتصل بسلوكيات محددة وقابلة للصياغة الكمية مثل: الهجمات أو الزمن الكموني لهجوم ما.

للحاول في البداية أن نعرف السلوك، ما السلوك؟ إنه طريقة في الوجود أو ردود فعل فاعل ما في حالة ما. والسلوك يتطلب اتجاهات وإجراءات غائية، وذلك مهما تكون التغيرات التي تتعرض لها هذه المفاهيم بدءاً من التحليل النفسي إلى مختلف التقصيات الفلسفية المعاصرة. وهذا الاقتراح مشروع حتى فيما يتعلق بانفجارات الغضب وغضب التدمير (الأعمى)، والمهم هنا هو أن نتساءل بخصوص العدوانية كالتالي: من هو العدواني؟ بالقياس إلى من؟ ولماذا؟

إذ لا يمكن للملاحظ إدراك دلالة سلوك ما دفعه واحدة، وينسحب ذلك على إدراك الفاعل أيضاً. فالمعنى المعاش غالباً ما يكون شمولياً، وعني عن البيان أن الدلالة الواضحة يمكنها أن تتعارض كلياً أو جزئياً مع الغاية الخفية للسلوك. إذ لا يمكن أن نصدق الأحاديث والمظاهر العدوانية المرئية للعدوان والحب، فالسلوك الودي قد يخفي أحياناً مشاعر عدوانية. وكما سنرى لاحقاً يمكن للسلوك العدائي لفرد ما أن يكون مجرد دفاع عن حبه الخاص. ويجب علينا هنا أن نأخذ بعين الاعتبار الغايات الشعورية، والغايات التي تتسلط على الفرد دون علم منه (الأشورية).

في النهاية لا بد أن نتساءل عن المعنى الخاص لمفهوم الغاية من العدوانية؟ إنه بالضرورة نوع من الحماية للذات أو امتدادها، وهي إجراء يتم بالتعارض مع الوسط الذي يوجد فيه الفرد. فالعدوانية بالتعريف هنا هي استعداد يهدف إلى تحقيق الحماية وتأكيد الذات وذلك في مواجهة أحد ما أو

شيء ما. وهنا يمكننا أن نميز بين قَتْئَنْ من العدوانية: العدوانية الدفاعية وهي التي تعمل على المحافظة على الذات وخصوصياتها، ثم قَتْهَ العدوانية الهجومية وهي عدوانية ذات طابع نرجسي.

فالعدوانية تمارس بطرق مختلفة، وتؤدي إلى مشاعر مختلفة أيضاً (حب القتال - الغضب - والأسف - وغياب الخوف) وفي كل الحالات والأحوال فإن العدوانية تتضمن معارضة إن لم تتضمن نوعاً من الحقد والضغينة، ومع ذلك يمكن الاستناد دائماً إلى الاشتراق اللغوي للكلمة والاعتماد على المعنى الواسع لها وذلك دون التركيز على مضامين التعارض. ونحن نفضل هنا وفي هذا السياق الحديث عن النشاط والاستقصاء والكشف والعنف والتأكد على الذات وذلك وفقاً للحالات، وأن نبتعد إلى حدّ ما عن استخدام مفهوم العنف نفسه. ومن أجل استجلاء هذه المفاهيم بشكل أفضل لنجاول أن تعود إلى الأشياء نفسها.

فالشاب الذي يسدد جيداً ويضرب الكرة في المرمى بدقة ليس عدوانياً. ولكن هذا السلوك في كلّيته ليس تعبيراً عن الذات فحسب بل هو فعل قد يتم على حساب الآخر. ولكن يمكن القول إن هذا الفتى يؤكّد نفسه بفضل لعبة الكرة. ونحن لا نستطيع أن نقوم سلوكه على أنه عدواني ما لم يدفع زملاءه من أجل احتكار الكرة بمفرده ليسجل أهدافاً خاصة به، وهذا ينسحب على أي ردود فعل دفاعية لأنها غير عدوانية، فالفعل العدواني لا يتم إلا عندما يتصرف الشخص بصورة تتطوّي على مضمون حاقد.

ويمكن في هذا السياق أن نستعرض رؤية جان بول سارتر J.P.Sartre التي تطرح تحليلاً أخاذأً لطابع العنف في النزرة. فالاهتمام الذي يوليه الشريك

لشريكه قد يأخذ طابعاً تطفلياً جارحاً، ولكن بعض النظارات يعبر عن مودة وافتتاح واستفهام بعيداً عن الامتحان العدواني. فالنظرية والاهتمام الإدراكي تعنيان "الوجه نحو" ولكننا نعتقد أن العدوانية هنا ليست مشروعة إلا إذا كانت النظرة أو الاهتمام يتوجهان بشكل معارض "الوجه ضد" وذلك على حساب الآخر.

تأخذ هذه الملاحظات أيضاً أهمية مشروعة بالنسبة لستور A.Storr، وذلك عندما يعلن أن العمل الذهني يوجد في علاقة مع القدرة على العدوان. وهو يستند هنا إلى تعبير مستخدمة في التفكير والمناقشة مثل: "يتصدى لمشكلة (*s'attaquer à un problème*) أو الانتصار على مشكلة وهذه المفاهيم ليست حججاً مقنعة بالتأكيد.

وإزاء هذه الإشكاليات التي يطرحها المفهوم تتبدى ضرورة بناء تعريف محدد له وليس من السهل مع ذلك أن نستنتج سريعاً السمة العدوانية عن غير العدوانية في الواقع الممارسة الحقيقة.

فالسلوك الواحد لا يعبر عن غاية واحدة، فكل سلوك بالضرورة غاية كما يعتقد فرويد وهذه نقطة يتفق عليها المؤرخون وعلماء النفس كلياً: لا توجد هناك دلالة وحيدة للأحداث ولا يوجد هناك سلوك يمثل اتجاهها وحيداً. فالذهани هو الوحيد الذي يعتقد بقدرته على كشف الخلفية المطلقة للأشياء. إن مبدأ تعدد المعاني الخاص بكل فعل لا يعني استحالة بناء اتجاهات رئيسية محورية. ويجب الاحتراس من الاستنتاج المتعجل إذ لا يمكن بسهولة تحديد الدلالة التي قد لا تظهر للنظرية الأولى.

لا تختلف معايير التفسير في المستوى الوجودي، أو في مجال التحليل النفسي بدرجة كبيرة عن نماذج التحليل الأخرى وخاصة في مجال علم

الدلالة. وينسحب ذلك على المؤشرات المعتمدة، واكتشاف الروابط، وعمليات التكامل، وطريقة التفكير الجديدة، وخصوصية التفكير. فمن أجل اكتساب القدرة على اتخاذ القرار لتحديد سلوك ما بأنه عدواني يجب على المرء أولاً أن يدرك النقاط التالية:

- ١ - الغاية والهدف من السلوك واتجاهه.
- ٢ - خلفيات السلوك وأصوله وأحداثه و بداياته - وهنا لا بد من الحذر ذلك لأن بعض أنماط السلوك ليس له علاقة كافية مع أصولها.
- ٣ - صيغة السلوك ووحدته الواقعية وبنائه المحسوسة.
- ٤ - سياقه العام وعلاقاته مع المظاهر الأخرى للحياة النفسية، وينطوي ذلك على الحالات التي خبرها الفرد صاحب السلوك..

وهنا يمكن لنا من حيث المبدأ الاعتقاد بأن البحث المجرد أو النظري حول دلالة نموذج سلوكي ما أمر قابل دائماً للشك، أو على الأقل للمناقشة. وأنه لمن الأهمية بمكان أن يبقى المرء على حيطة وحذر من حيث المبدأ بخصوص التفسيرات والشروط العامة. ويجب أيضاً على المرء أن يحترس من محاولة التفسير الكلي لخصوصية الوجود، أو من بناء نسق مزعوم وبشكل مسبق. وإذا كان صحيحاً أن لكل سلوك هامشاً غير شخصي أو عاماً، فإنه لمن المناسب مع ذلك أن ننظر إلى الأمر بروية وتمعن.

ويمكن القول في هذا الصدد إن بحثاً كبحثنا هذا، وبعيداً عن هدفه النظري يجد مبرراته استناداً إلى فرضيات عمل تشكلت في إطار الاتجاه الإكلينيكي وفي سياق التجريبية المنظمة.

ويمكن لنا في هذا السياق وعلى عجلة أن نحدد بعض المفاهيم التي توجد في إطار علاقة مع مفهوم العدوانية ولكنها مع ذلك لا تشكل مفاهيم مرادفة لها.

**فالكراهية** La haine إحساس يتوجه إلى إيذاء الآخر أو بالأحرى تدميره. ويعرّفها بول روبيرت Paul Robert بأنها:

١ - إحساس عنيف يدفع المرء إلى الرغبة في إيذاء أحد ما والحصول على السعادة عبر إزالة الأذى به.

٢ - هي بعض شديد ونفور من شيء ما.

فالكراهية تتضمن بعداً عدوانياً ومع ذلك فهي ليست واضحة. فالإنسان قد يمارس عملاً عدوانياً ضد آخر، دون أن تكون لديه مشاعر كراهية ضده أي بمعنى أنه لا يرغب في نهاية الأمر أن يسبب له الشقاء أو الزوال. وهذا المفهوم يجب ألا يستخدم إلا إذا كانت هناك نية في إزالة الآخر أو على الأقل في إيذائه. فالخشونة أو الفظاظة Cruauté عداون دائم بطريقة شعورية ومنظمة وذلك من أجل إحداث الألم للآخرين.

فالسادية Sadisme<sup>(١)</sup> سلوك ذو طبيعة لبديهة تأخذ صورة عداون ويمكن التمييز بين أشكال مختلفة منها:

١ - السادية الأخلاقية: استعباد الآخر وإخضاعه وتؤدي إلى لذة نرجسية.

(١) السادية Le Sadisme: يشير هذا المفهوم إلى فعل الحصول على اللذة الجنسية عبر إزالة الأذى البدني أو النفسي بشخص آخر. وتأخذ السادية الآن صيغة حب الأذى وتعذيب الآخر عموماً.

٢ - السادية الذكورية: وترتبط بالضرورة البيولوجية للعدوانية الذكورية.  
وهي أداة لإشباع الرغبة الجنسية أو كما يقول فرويد لتحقيق الهدف  
الجنسى الأولى.

٣ - سادية الإثارة الجنسية: وهي لذة لميية بالدرجة الأولى ترتبط  
بممارسة القوة العضلية وملاحظة الألم عند الآخرين.

### العنف والعدوانية:

يصعب على الباحثين التمييز بين هذين المفهومين، حيث يوظف أحدهما  
في مكان الآخر، وهذا التوظيف يأخذ مشروعيته في غالب الدراسات  
الأنتروبولوجية والسوسيولوجية والسياسية. ومن الضرورة بمكان هنا أن تبحث  
في ماهية مفهوم العنف وفصله عن مفهوم العدوانية.

جاء في اللغة العربية حول العنف: العنف: العنف: هو الاسم من  
العنف، وهو الشدة والقوة. وهو الخرق بالأمر وقلة الرفق به وهو ضد الرفق،  
أعنف الشيء أي أخذه بشدة<sup>(١)</sup>. عَنْفَ (عنف، يَعْنِفُ عنفاً) الرجل بغلامه أخذه  
بالشدة ولم يرفق به، فهو عانف والغلام معنوف. عَنْفَ (عنف يعنف، عنافة)  
الرجل كان شديداً قاسياً فهو عنيف، وعنف الرجل بغلامه، أي كان عنيفاً معه<sup>(٢)</sup>.  
هذا يعني العنف من حيث الجذر اللغوي "ممارسة القوة على شيء ما"<sup>(٣)</sup>.

(١) لسان العرب، ج. ٩.

(٢) حسن سعيد الكرمي، الهداي، ج. ٣، دار لبنان للطباعة والنشر بيروت، ١٩٩٣، ص. ٢٧٩.

(٣) روبرت فـ. لنكة العنف والقرة، ترجمة شريف بلهول، ضمن: المجلة الدولية لعلوم  
الاجتماعية، ظاهرة العنف: منظورات من خلال الفلسفة وعلم الاجتماع، عدد ١٣،  
(صص ٥-١٥) ص. ٥.

وعلى هذا الأساس يقترح روبرت أودي تعريفاً للعنف قوامه: مهاجمة الأشخاص أو استغلالهم على نحو جسماني أو نفسي شديد، ولكن الآراء الأكثر شيوعاً في المستوى الفلسفى هي: أن العنف هو الإيذاء بطريق استخدام القوة المادية الشديدة<sup>(١)</sup>. هذا ويحدد قاموس ويسترن سبعة معان لمفهوم العنف أهمها أن العنف هو "القوة الجسدية أو النفسية التي تستخدم للإيذاء أو للإضرار"<sup>(٢)</sup>. ومن الناحية التاريخية فإن كلمة العنف مشتقة من الكلمة اللاتينية *vis* أي القوة وهي تعنى في سياقها التاريخي اللاتيني القديم حمل القوة تجاه شخص أو شيء ما<sup>(٣)</sup>.

فالعنف هو استخدام القوة المادية لإلحاق الأذى والضرر بالأشخاص والممتلكات. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى تعريف (شارلز ريفيرا) Charles Rivera و(كينيث سويتزر) Kenneth Switzer حول العنف وهو: العنف هو الاستخدام غير العادل للقوة من قبل الأفراد لإلحاق الأذى بالآخرين والضرر بمتلكاتهم<sup>(٤)</sup>. فالعنف هو كافة الأعمال التي تتمثل في استخدام القوة أو القسر أو الإكراه بوجه عام ومثالها أعمال الهدم والإتلاف والتدمير والتخريب وكذلك أعمال القتل والفتنه والتعذيب وما شابه<sup>(٥)</sup>.

(١) روبرت فــلتــكة، العنف والقدرة، المرجع السابق، ص ٥.

(٢) توماس بلات، مفهوم العنف: وصفه وتفنيده، ضمن: المجلة الدولية لعلوم الاجتماع، ظاهرة العنف: منظورات من خلال الفلسفة وعلم الاجتماع، عدد ١٣٢، (صص ١٧-٢٥) ص ١٧.

(٣) توماس بلات، مفهوم العنف: وصفه وتفنيده، ص ١٨، المرجع السابق.

(٤) حسين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢، ص ٤٢.

(٥) بكر القباني، ثورة يوليو أصول العمل الثوري المصري، دار النهضة القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٠٩.

ويمكن القول أيضا في تعريف العنف بأنه: استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدامها. ويمكن أيضا استعراض: تعريف ساندرا بول روكيرج Sandra.J.Ball-Rokearch ومفاده أن العنف " هو الاستخدام غير الشرعي للقوة أو التهديد باستخدامها لإلحاق الأذى والضرر بالآخرين<sup>(١)</sup>". ويأتي في هذا السياق تعريف بيير فيو: الذي نظر إلى العنف بأنه ضغط جسدي أو معنوي ذو طابع فردي أو جماعي ينزله الإنسان بالإنسان<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال هذا التعريف للعنف في مستوياته المختلفة يمكن القول بأن العنف هو بعد رئيسي من أبعاد العداون وبلورة له. فالعدواني رجل عنيف وهو يلجأ إلى العنف في كل مناسبة من مناسبات فعالياته العدوانية. فالعنف ممارسة للقوة، والسلط هو ممارسة للعنف في أقصى درجاته ومختلف اتجاهاته. وهذا يعني أنه لا يمكن لفكرة التسلط أن تقوم من غير العنف بكل ما يتضمن عليه هذا المفهوم الأخير من نزعة إلى القهر والأذى والعدوان.

ويمكن لنا في هذا السياق أن نقدم بعض التعريفات التي تعطي للعنف صورة واضحة لمعنى العداون والعدوانية. فالعنف هو استخدام القوة المادية لإلحاق الأذى والضرر بالأشخاص والمتلكات. وبشار هنا إلى تعريف (شارلز ريفيرا) Charles Rivera و(كينيث سويتر) Kinneth Switzer للعنف بأنه "

(١) حسين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢، ص ٤٣.

(٢) بيير فيو، العنف والوضع الإنساني، في كتاب المجتمع والعنف: مجموعة من الاختصاصيين، ترجمة الياس زحلاوي، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ١٩٨٥، (ص ١٤٨ - ١٤٩).

الاستخدام غير العادل للقوة من قبل الأفراد لإلحاق الأذى بالآخرين والضرر بمتلكاتهم<sup>(١)</sup>. ويعرف بكر القباني العنف بأنه كافة الأعمال التي تتمثل في استخدام القوة أو القسر أو الإكراه بوجه عام ومثالها أعمال الهم و والإتلاف والتدمير والتخريب وكذلك أعمال القتل والفتاك والتعذيب وما شابه ذلك<sup>(٢)</sup>. وتعرف ساندرا بول روكيرج Sandra J.Ball-Rokeach العنف بأنه الاستخدام غير الشرعي للقوة أو التهديد باستخدامها لإلحاق الأذى والضرر بالآخرين<sup>(٣)</sup> وتتبادر هذه التعريفات في رؤية تعريف بيير فيو للعنف حيث ينظر إليه بوصفه ضغطاً جسدياً أو معنوياً ذا طابع فردي أو جماعي ينزله الإنسان بالإنسان<sup>(٤)</sup>.

والعنف Violence الذي عرف في القاموس بأنه " قوة قهرية غير شرعية" لا يشكل مفهوماً ترادفياً للعدوانية على الرغم من أن الاستخدام الخاص بالمفهومين لم يحدد بعد. جرت عادة الكتاب الألمان والهولنديين على استخدام مفهوم العدوانية بالحدود الواسعة للكلمة وذلك بالقياس إلى مفهوم

(١) حسين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢، ص ٤٢.

(٢) بكر القباني، ثورة يوليو وأصول العمل الثوري المصري، دار النهضة القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٠٩.

(٣) حسين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢، ص ٤٣.

(٤) بيير فيو، العنف والوضع الإنساني، في كتاب المجتمع والعنف: مجموعة من الاختصاصيين، ترجمة الياس زحلاوي، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ١٩٨٥، (ص ١٤٨-١٤٩).

العنف كتب هاكيير F.Hacker في هذاخصوص يقول: "إن العنف الخام هو الشكل المرئي والحر للعدوان ولا يأخذ كل عدوان صورة العنف"<sup>(١)</sup>. و في الفرنسية يوجد العكس تماماً: العدوان هو دائماً عنف ولكن لا يأخذ أي عنف إرادة العدوان. فطبيب الأسنان يلجاً إلى العنف، وبالتالي فإنه مهنته يمكنها أن تكون بالنسبة له طريقة عدوانية، أو فرصة لتأكيد نزعة سادية، ولكن هذه ليست حالة الطبيب بالضرورة. والشيء نفسه ينصح على المرء الذي يفرض بعض قواعد السلوك على الطفل ويمارس بعض العنف ضده، ولكن سلوكه هذا ليس عدوانياً بالضرورة. إذ لا يمكن الحديث عن عدوان أو عنف عدواني إلا عندما يؤكد المرء على إيذاء الطفل وضرره<sup>(٢)</sup>.

فالعنف المستبطن داخل المؤسسات أو الأنظمة السياسية - الرأسمالية الحرة أو رأسمالية الدولة على سبيل المثال - لا يفسر أبداً من خلال الشهوة إلى السلطة، أو من خلال نزعة الحكم إلى العدوانية. فالعدوان والعنف البنوي أو الرمزي حقيقة متمايزتان حتى لو كان يمكنهما التداخل.

ويمكن القول في هذاخصوص أن العنف لا يمكن أن يحدث آلياً وهو لا يشير إلى صورة سلبية دائماً. فالحدود القائمة بين الخير والشر هي دائماً صعبة على التحديد، ويمكنها أن تتغير وفقاً للتباين وجهات النظر التي تحكم. "فنحن لا نستطيع أن نؤدي شيئاً في واقع الأمر دون قليل من الإجرام" هذا ما كتبه فرويد في رسالته إلى باستور فيستر Pasteur Pfister وذلك في ٥ حزيران

Hacker.F., Agression -violence dans le monde moderne, Calmann-Lévy, Paris, 1954,130. (١)

(٢) علي أسعد وطفة، التربية إزاء تحديات التنصب والعنف في العالم العربي، مركز دراسات استراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٢، صص ٢٥-٢١.

١٩١٠. فالنشاطات الإنسانية، حتى هذه الأكثر خصوبة تتطلب نوعاً من السلطة والعنف. فالدافع إلى رفض العنف يعمل على إكراه الشعور الأخلاقي لصاحب السلطة السياسية أو البوليسية. فكل تطور يتطلب خسارة ما وتضحيات. وكل خلق لعمل ما يتطلب الابتعاد إلى حد ما عن المعطيات المباشرة الخاصة بالحزن على الماضي والاعتداء. فهناك عوامل بين العنف ومجموعة النشاطات الإنسانية. وعندما نحاول أن نصف الطبيعة الإنسانية فإننا سنعثر على تعارضات منها: التعارضات بين الطبيعة والثقافة، بين الفرد والمجتمع، بين الرغبة والمنع، بين العقل والللاعقلانية، بين الهوية والغيرية... الخ. ففي كل مكان يوجد المفهوم وضده. وبالتالي فإن العنف يأخذ مكان الهيمنة والصدارة، كما يقول بول ليفي Paul Levey: "السلام الكلي لا يسود إلا داخل المقاير<sup>(١)</sup>.

### العدوانية والقمع:

ويعد القمع أيضاً صورة من صور العدوانية، ونموذجًا من نماذجها وبعداً من أبعادها. «فالقمع في عمقه وهدفه هو أي قسر، ترغيب أو ترهيب، يفرض على الإنسان إما القيام بفعل أو الامتناع عنه، سواء في التفكير أو في القول أو السلوك أو العمل، أي أنه نقىض الحرية المطلقة التي هي انعدام القسر»<sup>(٢)</sup>. وفي اللغة العربية: القمع: مصدر قمع، والرجل يقمع قمعاً، وأقمعه أي قهره وذله فذل، والقمع الذل. وقمعه قمعاً: ردعه وكفه<sup>(٣)</sup>. وجاء أيضًا

Paul Lévey, Présentation académique de G.Bouthoul lors de la remise du doctorat Honoris (١)  
Causa de l'Un. Catholique de Louvain, 13 Mars, 1971, p230..

(٢) زكريا إبراهيم مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٨.

(٣) لسان العرب، ج ٨.

قَمَعٌ: قَمَعٌ، يَقْعُمُ فَعَمَا (الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ دَخَلَ وَاسْتَكَنَ، وَقَمَعُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ دَخَلَ مُتَخْفِيًّا، وَقَمَعُ الرَّجُلِ غَلَمَهُ، أَيْ ضَرَبَهُ بِالْمَقْمَعَةِ، وَقَمَعُ الْأَمِيرِ الْفَتَّةَ أَيْ أَخْمَدَهَا، وَقَمَعُ الْأَمِيرِ فَلَانَا أَيْ ضَرَبَهُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى يَذْلِلَ، وَقَمَعُ الْبَرْدِ النَّبَاتِ أَيْ رَدَهُ عَنِ النَّمَوِ<sup>(١)</sup>:

فالقمع يتمثل في " كل نظرة دونية لأي إنسان، وكل تعصب قبلي أو عائلي أو ديني أو قومي أو طائفي أو مذهبي أو سياسي، وكل تزوير وتضليل في كل الميادين الحياتية، وكل نقد تجرببي غير موضوعي، وكل رفض للحوار والتعاون والتسييق والتوحيد، وكل استهتار بالأخلاقيات والحربيات والقوانين، الخادمة للإنسان، وهذه المظاهر ما هي إلا بعض معطيات ومظاهر قمع الآخر<sup>(٢)</sup>.

ويتضمن مفهوم القمع ثلاثة عناصر أساسية وهي:

- (أ) فكرة الشدة (كما في العاصفة أو الإعصار)
  - (ب) فكرة الإيذاء (كما في الوفاة بحادثة)
  - (ج) فكرة القوة العضوية أو المادية<sup>(٣)</sup>.

(١) حسن سعيد الكرمي، الهداي، ج٣، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣.

(٢) نجاح محمد، العقل العربي والقمع، المعرفة السورية، السنة ٣٣ العدد ٣٦٦، آذار/مارس، ١٩٧٤، (صص ٤٦-٧٣) ص ٤.

وفي كل الأحوال ما نعنيه بالقمع هو استخدام أقصى درجات الشدة والقوة ضد الآخر لاخضاعه وإلغاء وجوده المعنوي والشخصي مادياً أو معنوياً بصورة جزئية أو كلية<sup>(١)</sup>.. والقمع قد يكون نفسياً أو رمزاً أو مادياً وقد يشتمل على جميع هذه الجوانب دفعة واحدة<sup>(٢)</sup>.

### الإرهاب والعدوانية:

يعود مصدر كلمة الإرهاب Terror في اللغة الانكليزية إلى الفعل اللاتيني Ters والذي يعني إثارة الخوف والرعب الشديد<sup>(٣)</sup>. ويعود الأصل اللغوي لكلمة إرهاب Terreur في اللغة الفرنسية إلى الفعل السنسكريتي Tras وهو يعني رجف وفي ذلك إشارة إلى حالة من الخوف الشديد الذي يستثير حالة من الارتعاد والرجفان والرعب عند الإنسان<sup>(٤)</sup>.

وجاء في المعجم الرائد أن الإرهاب هو رعب تحدثه أعمال العنف مثل القتل والتغيير والتخريب. وتعني الكلمة إرهاب التي شاعت استخدامها مؤخراً نوعاً معيناً من الجرائم التي تقع تحت تأثير العنف والتهديد والقتل، حيث يستهدف مرتكبو هذه الجرائم إرغام السلطات أو الهيئات ذات الشأن على القيام بعمل أو الامتناع عن عمل، وهم بفعالية إرهابهم هذه يضعون حياة الأبرياء وأموالهم تحت الخطر.

(١) انظر: محمد الجوة، مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، ترجمة فتحي الرقيق، الفارابي، ١٩٩٤.

(٢) انظر عبد الله بلقزيز، العنف السياسي في الوطن العربي، المستقبل العربي، عدد ٩٠، ١٩٩٦ (صص ٦٨-١٠١).

(٣) أحمد جلال عز الدين، الإرهاب والعنف السياسي، دار الحرية، القاهرة، ١٩٨٦.

Guirdini. R., La puissance, Seuil, Paris, 1954, p60. (٤)

ويرى وولتر أن الإرهاب عملية تتكون من ثلاثة عناصر: فعل العنف، أو التهديد باستخدامه، ومن ثم ردود الفعل التي تجم عن الخوف الشديد الذي ينجم عن ممارسة الإرهاب<sup>(١)</sup>. ويمكن القول بأن الإرهاب هو الممارسة المنهجية المنظمة للرعب الذي يؤدي إلى فقدان مشاعر الأمن وتوليد مشاعر التوتر والقلق.

هذا ويمكن تعريف الإرهاب بأنه: "استخدام متعدد للعنف أو التهديد باستخدام العنف من قبل بعض الدول أو من قبل بعض الجماعات تشجعها وتساندها دول معينة لتحقيق أهداف استراتيجية وسياسية، وذلك من خلال أفعال خارجة على القانون، تستهدف خلق حالة من الذعر الشامل في المجتمع غير مقتصرة على ضحايا مدنيين أو عسكريين من يتم مهاجمتهم أو تهديدهم<sup>(٢)</sup>." وتعرف وزارة الخارجية الأمريكية الإرهاب "بأنه نوع من العنف المتعدد تدفعه دوافع سياسية، موجه نحو أهداف غير حربية، تمارسه جماعات معينة أو علماء سريون لإحدى الدول<sup>(٣)</sup>. ويعرف بعض الباحثين الإرهاب بأنه: "القتل العمد المنظم الذي يهدد الأبرياء ويلحق الأذى بهم، بهدف خلق حالة من الذعر من شأنها أن تعمل على تحقيق غايات سياسية<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد يسري إبراهيم دعبس، الإرهاب والشباب، دار الندوة، الإسكندرية، ١٩٩٤، صص (٤ - ٥).

(٢) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، الرسالة ١١٠، حوليات كلية الآداب، الكويت،铰ولية ١٦، ١٩٩٦، صص ٨٩-٨٧، ص ١٧.

(٣) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، المرجع السابق، ص ١٧.

ويعرف مكتب المباحث الفيدرالي FBI في الولايات المتحدة الإرهاب بأنه: "استخدام غير مشروع للقوة أو العنف، ضد الأشخاص أو الممتلكات كي يسيء إلى الحكومة، أو المدنيين، أو قطاع من المجتمع، وذلك لتحقيق أهداف سياسية، أو اجتماعية"<sup>(١)</sup>.

من أهم ما يمكن ملاحظته على تعریف الإرهاب ما يلي:

- أن الإرهاب لا يتبع أية قواعد أو أصولاً أخلاقية في ممارسته لأفعاله.

- يستخدم الإرهاب العنف أو يهدد باستخدامه، موجهاً له في الأغلب نحو أبرياء لا علاقة لهم بأية قضايا يدعى الإرهابيين اهتمامهم بها.

- أن ذلك العنف هو بمثابة نوع من الحرب النفسية تستهدف خلق حالة من الذعر بين المواطنين وفقدان الثقة في السلطة القائمة<sup>(٢)</sup>.

وهناك بعض الباحثين الذين يعتقدون بأن الإرهاب ينبع أساساً من الإحباط الذي يحدثه عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأنه وبالتالي استجابة منطقية لمثل هذا الواقع القائم، فالإرهاب نتاج لكل عوامل الظلم، ولطبيعة النظام القائم وللعلاقات الدولية<sup>(٣)</sup>.

ويتبين البعض الآخر من الباحثين نفس الاتجاه بتقرير أن الجماعات الإرهابية كانت نفسها ضحايا بريئة لعنف جائر مارسه عليها الآخرون، وأنه

(١) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، المرجع السابق، ص ١٨.

(٣) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، المرجع السابق، ص ٢٠.

من غير العدل إدانتهم، إذ إن العنف والظلم الأساسي الموجه نحوهم لم يتم إدانته وعلاجه، كما أنه لم يكن لأفراد هذه الجماعات خيار فيما يفعلونه، فهم ضعاف جداً في مواجهة أعدائهم، ومن ثم كان عليهم إثارة اهتمامات العالم بحقوقهم الشرعية<sup>(١)</sup>.

هذا ويسجل التاريخ أن اليهود كانوا أول من مارس الإرهاب ونظمه حيث يقول غالتهم أن السيف والتوراة قد نزلتا من السماء. وقد كانت أول منظمة إرهابية عرفها التاريخ هي منظمة السيكارى Sicarrii التي شكلها بعض المتطرفين من اليهود في فلسطين وهم اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين في نهاية القرن الأول قبل الميلاد بعد أن كان البابليون قد شتوهم عام ٥٨٦ ق.م. وكان هدف الوافدين إعادة بناء الهيكل الذي سمي بالمعبد الثاني<sup>(٢)</sup>.

ويعد مفهوم الإرهاب من المفاهيم الأساسية التي تعبّر عن مفهوم العدوانية أيضاً. فالإرهاب صورة من صور العداوة ونتيجة من نتائجه. والإرهاب بالتعريف هو: «نسق الفعاليات والخبرات السلبية الغيرية التي يخضع لها ويعانيها من يقع عليه العداوة: كالعقوبات الجسدية، والاستهزاء، والسخرية، والتهكم، وأحكام التخييب، وغير ذلك من الإحباطات النفسية والمعنوية التي تشكّل المناخ العام لحالة من الخوف والتواتر والقلق التي يعانيها ضحايا العداوة والتي تستمر عبر الزمن وتؤدي إلى نوع من العطالة النفسيّة والفكريّة وإلى حالة من الاستلاب وعدم القدرة على التكيف

(١) عزت سيد إسماعيل، سيكولوجيا التطرف والإرهاب، المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) انظر لمزيد من التفاصيل السياسية للإرهاب: زيد بن محمد بن هادي المدخلي، الإرهاب وأثاره على الأفراد والأمم، مكتبة الفرقان، عجمان، ٢٠٠٠.

والمبادرة»<sup>(١)</sup>، فالإرهاـب هو ممارسة للعنف والتسلط والإكراه والقسر والعدوانية، وهذا يعني بالضرورة أن هذا المفهوم هو صورة من هذه الصور وهو في النهاية بعد أساسـي ونتـجـة أساسـية من نتـائـجـ مفهـومـ العـدوـانـيـةـ.

ولـا بـدـ منـ الإـشـارـةـ فيـ هـذـاـ السـيـاقـ إـلـىـ أـنـ يـمـكـنـ لـنـاـ أـنـ نـسـتـعـرـضـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ مـنـ الـمـفـاهـيمـ الـمـاتـاخـمـةـ لـمـفـهـومـ العـدوـانـ وـالـإـرـهـابـ وـالـعـنـفـ وـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـمـفـاهـيمـ الـمـتـجـانـسـةـ وـالـمـتـرـادـفـةـ.ـ وـمـعـ ذـلـكـ نـعـتـقـدـ بـكـفـلـيـةـ ماـ أـدـرـجـناـ مـنـ مـفـاهـيمـ مـتـقـارـبـةـ،ـ إـنـاـ نـسـتـطـيـعـ بـالـنـتـيـجـةـ أـنـ نـخـرـجـ بـتـصـنـيـفـ أـسـاسـيـ قـوـامـهـ:ـ أـنـ مـفـهـومـ العـدوـانـيـ يـأـخـذـ فـيـ نـسـقـ درـاسـتـاـ هـذـهـ صـورـةـ مـرـكـزـيـةـ لـمـنـظـوـمـةـ مـفـاهـيمـ التـسـلـطـ وـأـبعـادـ الـمحـورـيـةـ وـالـتـيـ تـقـمـلـ فـيـ الـعـنـفـ وـالـإـرـهـابـ وـالـقـمـعـ وـالـتـسـلـطـ.ـ فـالـعـدوـانـ وـالـعـدوـانـيـ بـالـنـتـيـجـةـ هـوـ مـمـارـسـةـ سـيـكـلـوـجـيـةـ أـوـ مـادـيـةـ لـلـعـنـفـ وـالـقـمـعـ وـالـإـكـراهـ وـالـإـرـهـابـ وـالـعـدوـانـ.ـ وـبـالـتـالـيـ فـيـ هـذـهـ الـمـظـاـهـرـ هـيـ مـظـاـهـرـ وـنـتـائـجـ لـفـعـلـ التـسـلـطـ الـذـيـ يـسـتـجـمـعـ فـيـ ذـاـهـنـ مـقـومـاتـ هـذـهـ الـمـفـاهـيمـ وـيـسـتـخـدـمـهـاـ.

---

(١) انظر: علي وطفة، الإرهاب التربوي، العربي الكويتية، عدد ٤٦٠، مارس/ آذار ١٩٩٧.

### المبحث الثالث :

## العدوانية في نظرية فرويد

يسعى بحثنا إلى تفكيك مفهوم العدوانية وإعادة بنائه وفقاً للصورة التي تظهر في نظرية التحليل النفسي، وهذا بدوره يؤسس لفهم عميق لمعنى العدوانية ودلالتها السيكولوجية في النظرية الفرويدية. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية فإننا نعتقد بأهمية العودة إلى أعمال فرويد الأساسية. وبالتالي فإن العودة إلى فرويد تسمح لنا باستطلاع ينابيع الأدبيات السيكولوجية الخاصة بموضوع بحثنا. ولا بد من الإشارة في هذا المسار إلى المكانة الهامة التي احتلها سigmوند فرويد Sigmund Freud مؤسس التحليل النفسي في مجال الاكتشافات الخاصة بالعدوانية الإنسانية.

كتب دolar وMiller Miller في الصفحة الأولى من كتابهما الكلاسيكي في علم النفس التجريبي "الإحباط والعدوان" (Frustration et l'agression) 1939 أنه يجب أن نخص فرويد بالشكر وذلك لأنه صاحب الفضل في تقديم رؤية علمية شاملة ساعدت على تشكيل فرضياتنا الأساسية ورؤيتنا العلمية لمسألة الإحباط والعدوان<sup>(١)</sup>. فكم من علماء النفس السلوكيين، الذين

---

- Dollard J., Doob L., Miller N., Et Autres, Frustration et agression, University Press 1939, 163. (١)

يعالجون مسألة العدوان مثل: بوس Buss وبيركوتس Berkewitz، يكرسون دائمًا جانبًا مهمًا من كتابهم لعرض الطروحات الفرويدية ونقدها، ولا تكاد فرضياتهم الخاصة بالتحويل Déplacement والتفيسis (Catharsis) تخرج عن دائرة العمليات التي وصفها فرويد وحلها. ومن هذا المنطلق يشعر علماء النفس المعروفون، مثل هانس Hans وكينز Kuns، على سبيل المثال بضرورة العودة إلى مفاهيم فرويد، رائد التحليل النفسي، في سياق معالجاتهم لقضايا العنف والعدوانية<sup>(١)</sup>. لقد استطاع فرويد بعقربيته الفذة وطروحاته التاريخية الجريئة أن يزلزل نقا علم النفس الكلاسيكي وصارامته في اكتشافاته الرائعة لجوانب غامضة في مفهومي الجنس والعنف وذلك في إطار نظريته التاريخية في التحليل النفسي.

فالجهود الكبيرة، التي بذلها في معالجة المعطيات النفسية بصورة سريرية (إكلينيكية) صبور، كان لها شأن علمي كبير تبدى في تحليله لحالات فريدة قادته إلى اكتشاف الجوهر النفسي لهذه الحالات، ولم يسبقه في هذا الميدان أحد أبداً. وينسحب هذا على تلامذته الذين لم يستطيعوا بدورهم أبداً تجاوز أستاذهم في كثير من القضايا والمسائل والقضايا العلمية. ويحمل هنا أن نعود إلى بعض السطور من رسالة موجهة إلى فستر Pfister في الثاني

(١) يشير مفهوم التفيس أو التفريغ أو التطهير Catharsis إلى عملية تفريغ المشاعر المكبوتة وإطلاقها عبر آليات التعبير أو التسامي أو التعويض. ويعتمد التحليل النفسي على هذا المبدأ في إطلاق مكبوتات المريض من أجل علاجه من بعض أمراضه النفسية. ويشير مفهوم الاستبدال Déplacement إلى العملية التي يتأتى فيها للفرد تحويل رغبته أو اهتمامه من الموضوع الأصلي إلى موضوع بديل: الانتقال من حب المرأة كموضوع أساسى إلى عشق الأدب كموضوع بديل.

عشر من تموز ١٩٠٩، والتي تشير إلى الروح الخلاقة التي اهتدى بها فرويد في سعيه العلمي، تقول الرسالة: " إن تأكيداتنا جميعها مستمدة من التجربة - وبالنسبة لي من تجربة يمكن للأخر أن يفسرها بطريقة أخرى - وليس نتاجا لأوهام نشأت عن جلسات حول طاولة عمل "(١). فليس كافيا للمرء أن ينخرط في ممارسة عملية ما وأن يسجل ملاحظات ما لبناء علم النفس أو أي علم آخر يحظى بالمشروعية والديمومة والخصوصية"(٢). وهذا ما يشير إليه ستراسير S.Strasser في رسالة له بعنوان: "بؤس الواقع وعظمته" ( Misere et grandeur ) (٣). ومن هذا المنطلق لم يكف فرويد بجمع المعطيات الإكلينيكية فحسب بل عمل على اكتشاف منظومة من العمليات التي أكد سابقاً على أهميتها بدرجة واسعة، ولاسيما هذه التي تتعلق بآثار الكبت ونتائجها، وهذه التي تتصل بعملية التحويل النفسي عندما يكون موضوع الإشباع بعيد المدى، ثم تلك التي تتعلق بالقلق وهي عملية ترتبط أيضاً بالكبت أو بإحباط النزعة العدوانية. ومن هذه العمليات أيضاً يشار إلى بعض أشكال العدوانية كالنزعة السادية والعدوان يوصفهما تعبيراً عن نضال الفرد ضد دوافعه اللبيبية وعن حالة يعانيها الفرد عندما ينتهي الممنوع Tabous وعندما تتشكل لديه نزعة أو ميل نحو المحرم "الثابو". ومن ثم إلى عملية التوحد مع المعتدي (التماهي بالمتسلط)، والبرودة الجنسية، والتمرد الناجم عن مشاعر الإحساس بالذنب... الخ.

S. Freud & O. Pfister, Correspondance avec le pasteur Pfister. 1909-1939, E. L. Freud (١)  
et H. Meng éd., trad. L. Jumel, Gallimard, Paris ,1966,p118.

S- Freud, La Naissance de la psychanalyse. Lettres à Wilhelm Fliess, notes et plans(Aus (٢)  
den Anfängen der Psychoanalyse, 1887-1902 ), M. Bonaparte, A. Freud et E. Kris éd.,  
trad. A. Berman, P.U.F., Paris, 1956, 5e éd. 1986.

IN Husserel, Troisième Colloque Philosophique de Raymont, Paris, 1959,p 170. (٣)

عندما أراد فرويد دراسة السلوك الإنساني حاول اكتشاف القوانين التي تسوده، وحاول بالإضافة إلى ذلك فهم الدلالات المكتوبة عند الكائن المنفرد. فللمعنى الجوهرى لفرويد يمكن، ومن غير أننى شك، في تركيزه على بناء نموذج جديد لعقلنة الحياة الفيزيائية. ومهما يكن الأمر فإن فرويد حاول ومنذ البداية أن يدرك طبيعة السلوك الإنساني انطلاقاً من دلالات خفية أو صريحة ومن أحداث ينظر إليها عبر العلاقة القائمة بين الإنسان وماضيه ومشروعاته المستقبلية.

يبين فرويد أن الحياة النفسية تتحدد بدلالة ديناميه وتاريخية في أن واحد. فبالنسبة له، كما هو الحال بالنسبة لهوسيرل Huseerl، لا يكفي أبداً أن نتلمس غريزة أو مجموعة عمليات من أجل أن ندرك ونحل ظاهرة العداون الإنساني، فالجوهرى هو الكشف عن دلالة هذه الغريزة واتجاهاتها. ومن هذا المنطلق لم يترك فرويد منطقة أو جانباً من السلوك الإنساني من دون أن يسقط عليها دلالات أو معانٍ. ومن غير شك فإن الإنسان هو موضوع الدراسة وخاصة في مستويات محددة مثل الدوافع التي لم تأخذ دورها كاملاً من الدراسة والتحقيق.

### تطور المفاهيم الفرويدية:

يبين فرويد، وبصورة نموذجية، أن دراسة المسائل الباعثة على القلق مثل: غريزة الجنس *La sexualité*، وغريزة التدمير *La destruction*، وغريزة الموت *La mort*، تصطدم بمقاومة انفعالية تعود في أصلها إلى مكتوبات الباحث<sup>(۱)</sup>. وهو في نسق جهوده العلمية المختلفة يكتشف وبصورة مبكرة

regard: S. Freud Trois Essais sur la théorie de la sexualité (Drei Abhandlungen zur (۱) Sexualtheorie, 1905), trad. B. Reverchon-Jouve. Gallimard, paris, 1962.

سلسلة من السلوكيات العدوانية التي تتغلغل في أعماق الإنسان. ومع أهمية هذا الاكتشاف لم يستطع أن يوجه اهتمامه لدراسة هذه الأنماط السلوكية العدوانية في المراحل الأولى من عطاءاته العلمية. ويعود ذلك إلى أنه لم يكن باستطاعته معالجة أشياء متعددة في وقت واحد. حيث ترتب عليه في البداية أن ينصرف كلياً لدعيم اكتشافاته الأولى ولاسيما اكتشافيه الأولين الأساسيين وهما: العمليات اللاشعورية وأهمية الجنس. لقد اكتشف خلال أبحاثه الأولى وجود علاقة بين العدوانية والمظاهر السيكولوجية الأخرى التي عكف على دراستها. وهذا هو يكتب في عام ١٨٩٤ مبيناً طبيعة العلاقة بين الجنس والغضب: "إذا كان الغضب حالة اندفعالية مرتبطة مع حالات حصر متعددة فإن الفحص الدقيق يبين أن هذه الحالة ذات طبيعة جنسية كامنة دائماً في أصل الأعراض المرضية". وفيما بعد يعلن فرويد بعد أربعين عاماً من الممارسة والعمل في مجال علم النفس مع بعض الدهشة بأنه لا يمكن أن تتجاهل أبداً الحضور الكلي للعدوان والتدمير في كل مكان. ويتحدث لاحقاً عن الصعوبات التي واجهها في الاعتراف بأهمية العدوان وأهمية المفاهيم التي يستخدمها للتعبير عن مكبوتات اللاشعور والجنس في العدوانية.

وعندما روت له إحدى مريضاته أنها رأت في الحلم بأن ابنتها البالغة خمسة عشر عاماً من العمر قد توفيت ومدلت في تابوت، يلجم فرويد إلى الربط بين هذا الحلم ورغبة مكبوتة في التدمير والعدوان. وهو يشير بصدق تفسيره لهذا الحلم إلى أن المرأة كانت حاملاً منذ خمسة عشر عاماً وأنها كانت ترغب أثناءها في موت جنينها. وبعد ذلك يعزز فرويد تفسيره بأن حال المرأة الحالمة كحال شريحة من النساء الشابات اللواتي لا يشعرن بالسعادة عند

الحمل حيث رغبت لا شعورياً في موت الجنين في أحشائها، فالرغبة كانت قديمة منذ خمسة عشر عاماً<sup>(١)</sup>.

إن تقديم تفسير آخر لهذا الحلم غير هذا الذي يرسمه فرويد ينطوي بالتأكيد على مجازفة حقيقة، إذ يجب هنا بحق أن نترك لفرويد أن يأخذ دور الحكم الوحيد فيما يتعلق بأقوال مرضاه. ومع ذلك فإننا نعتقد بأن تفسيراً آخر لا ينطوي على مجازفة كبيرة عندما نأخذ بعين الاعتبار واحداً من الأحلام التي خبرها بنفسه وذكرها في الفقرة الخاصة بأحلام العقاب في عام 1919.

يروي فرويد في هذه القصة أنه وبعد انتظار طويل دون أخبار عن ابنه، تراءى له في الحلم أن ابنه قد قتل في الحرب، وذلك على الرغم من الدلالات الغنية لهذا الحلم فإن فرويد أخيراً يمتلك الشجاعة ليعلن عن الجوانب غير المرغوبة حيث كتب هذه المرة يقول: "لقد سمح لي التحليل النفسي المعمق أن أكتشف النزعة الخفية التي يرضيها الموت المخيف للابن إنها الرغبة الخاصة بالعودة إلى مرحلة الشباب التي يعتقد الإنسان المعمر بأنها زالت نهائياً وأنها لن تعود.

وتحري بنا الآن أن نرسم الملامح الأساسية لتطور المفاهيم الفرويدية التي تلامس بشكل مباشر أو غير مباشر مسألة العنف. وسننطلق في إطار ذلك من وجة نظر تاريخية وذلك لا يعود إلى أهمية الجانب التاريخي للمسألة فحسب بل لأن فرويد نفسه قد انطلق من إطار هذه الرؤية ليبين أيضاً مدى أهميتها وخطورتها.

---

Regard : D. Berger, sous le titre: L'Interprétation des rêves, P.U.F., 1967. (1)

ويمكن لنا أن نميز مرحلتين أساسيتين في فكر فرويد: هي مرحلة التركيز على مفهوم *الأنا* Moi حتى عام 1919. ومن ثم المنشورات التي أصدرتها دار النشر Jenseits حتى عام 1920 والتي ركزت على المراحل الأخيرة من أعمال فرويد. وهناك تقسيمات فرعية تتمثل في ثلاثة مستويات للمراحل: نظريته في الدوافع وفي المراحل الحرجة للحياة النفسية والتي تبدأ من ما بين عامي 1892 - 1913، ثم الدوافع الجنسية والعمليات اللاشعورية ما بين عامي 1914 - 1919، وأخيراً دوافع *الأنا* ودوافع الموت والأنا الأعلى بين عامي 1920 - 1939.

## المبحث الرابع :

### العدوانية في المرحلة الأولى من تفكير فرويد:

«الظلم من طبع النفوس»

أرسسطو

تشتمل الأعمال الأولى لفرويد مجموعة من المعطيات الأساسية الخاصة بمستقبل التحليل النفسي. حيث يحلل فرويد مفهوم القمع (Répression)<sup>(١)</sup>. كمرحلة تمهدية لتحليل مفهوم الكبت Refoulement ومعالجته. وبين الازدواجية ودينامية اللاوعي بوصفهما تعبيراً لنطمور الإرادة المضادة "Gengennulle". لقد عبر فرويد عن العلاقة العميقة بين الطبيعي والمرضى بمفاهيم أخلاق لها دائماً: فالعمليات التي تقود إلى أعراض مرضية موجودة عند الأفراد الطبيعيين بصيغة مختلفة.

ويحاول فرويد في هذه المرحلة أن يفسر الرهاب Phobia أو الخوف المرضي<sup>(٢)</sup> والوسواس المتسلط Obsession. وهو في إطار حماواته هذه

(١) القمع Répression: وهو عملية إقصاء شعورية وإرادية للحاجات والأحداث والخبرات المؤلمة غير المقبولة بينما يتخلص الإنسان في الكبت Refoulement بدفع الأحداث التي لا يرغب فيها بشكل لا شعوري إلى اللاشعور وقلية للحياة الشعورية مما يققها.

(٢) رهاب فوبيا(Phobia): مخاوف مرضية قهرية ناجمة عن أحظار وهمية يتصورها الفرد مثل: الخوف من الظلام والأماكن الضيقة وأشياء داخلية مثل الخوف من المرض أو الإصابة بالجنون وهي حالات تحتاج إلى علاج نفسي واجتماعي.

استطاع أن يحدد المعالم الأولية لنوع من المظاهر الوصفية الخاصة بوضعية هذه التشكيلات النفسية المرضية إذ يبين لنا كيف تتطور هذه التشكيلات على أساس من القلق والحسر النفسي وعلى أساس من التصورات المعارضة للفعل الوعي الموجه.

ومن الحالات المهمة التي يذكرها فرويد، والتي تتصل بموضوع العنف والعدوانية، حالة مريضة تعاني هستيريا تتمثل أعراضها في تشنج عضلي في الوجه واصطكاك الأسنان وتهجد في اللسان. وبمساعدة التقويم المغناطيسي استطاع فرويد أن يكشف الأسباب العميقة لهذه الهستيريا العدوانية.

لقد اكتشف فرويد هذه المرة الأساس المادي الذي م肯ه من تفسير هذا التشنج عند المريضة. كانت المريضة (Emny) قد عانت كثيراً من الآلام عندما وضعت ابنتها الأخيرة، حيث لازمت سرير ابنتها بشكل دائم، ومنذ ذلك الحين توقفت عن تقديم المساعدات لزوجها الذي ينمازع، وفيما بعد حملت الطفلة مسؤولية كل الشقاء الذي تعانبه. لقد اعترفت المريضة بأنها كرهت ابنتها الصغيرة وتركـت لهاـ هذه الكراهيـةـ أـنـ تـتوـغلـ فـيـ أعـماـقـهاـ،ـ وـكـانـ فـروـيدـ يـصـفـ هـذـهـ المـرأـةـ بـأـنـهـاـ حـيـوـيـةـ وـنـكـيـةـ وـحـسـاسـةـ وـأـخـلـاقـيـةـ جـداـ،ـ وـيـصـعـبـ عـلـىـ المـرـءـ أـنـ يـصـدـقـ بـأـنـهـاـ يـمـكـنـهاـ أـنـ تـكـرـهـ طـفـلـهـاـ،ـ أـوـ أـنـهـاـ تـرـغـبـ فـيـ ذـلـكـ فـيـ سـيـاقـ نـزـعـةـ اـنـقـامـيـةـ<sup>(١)</sup>.

عندما نستطيع النصوص الأولى لفرويد، بصورة عامة، يمكن الملاحظة بأن الميول العدوانية لا تحظى بأهمية كبيرة. ومع ذلك يمكن القول إنه إذا كان

(١) S. FREUD & J. BREUER, Etudes sur l'hystérie (ber den psychischen Mechanismus hysterischer Phenomene, 1893; Studien über Hysterie, 1895), trad. A. Berman, 2e éd. P.U.F., Paris, 1967.

قد ركز اهتمامه طويلا حول اكتشافاته الأولى وخاصة الوظيفة المرضية للجنسانية المقومة فإن هناك إشارات مهمة بالنسبة لإشكالية بحثنا وهي تظهر منذ بداية أعماله. ومن هذه المؤشرات في هذه المرحلة تقسيمه لأنحراف أمزجة العصابيين.

إن قابلية الهستيريين العالية للهيجان والانفعال غالبا ما تجلب الحزن للأشخاص الذين يحيطون بهم. وفي هذاخصوص لم يكن فرويد أو صديقه بروير Breuer يكتفيان بسرد الحوادث وإطلاق الأحكام على الأشخاص بل كانوا يدرسان قابلية الانفعال والهيجان بوصفها ظاهرة مرضية ناجمة عن صعوبات سيكولوجية. وفي هذا الصدد يشير بروير Breuer إلى أن مريضته المشهورة آنا Anna كانت تتقلب بين حالات تبدأ بالحزن الشديد وتنتهي إلى حالة من الشراسة والفظاظة. وهو يبين في سياق ذلك أن هذه الحالات السلبية تفسر بالوضعية العصابية للمرأة. ويكتب بروير في خلاصته عن هذه الحالة أنه يمكن الحديث عن نماذج متعددة للهستيريا مثل "الهستيريا العنيفة والخجلة وال بشعة". ويصل فرويد إلى مثل هذه النتيجة أيضا عندما يحل قابلية الانفعالية في مرض "عصاب الحصر" Névrose d'angoisse وهو مرض نفسي<sup>(١)</sup> يحتل أهمية وأولوية في لوحة فرويد للأمراض النفسية<sup>(٢)</sup>.

(١) عصاب الحصر Névrose d'angoisse مفهوم فرويدي يشير انفعال مرضي يوظف لدى الفرد فكرة مبهمة لكنها آسراً يجعل المريض أسيراً لحساس غامض بخطر مجهول وشعور خوف يلاحمه وجود شر خيالي متوهם واقع.

(٢) S.Freud La Disposition à la névrose obsessionnelle» (Die Disposition zur Zwangsneurose, 1913), in Névrose, psychose et perversion, P.U.F., 6e éd. 1988.

هذا ويشكل الابتعاد عن الأحكام الأخلاقية كما يشير التحليل السابق شرطاً أولياً لإدراك الحالات النفسية العميقه. وبالتالي فإن هذه الحيادية تجلت بكل وضوح في تفسير فرويد "للمقاومة للدفاع Résistance" وفيما يلي نموذج حالها:

كانت السيدة إيمى Elisabete Emmy واليزابيت Elisabete من أوائل مرضى فرويد وكانتا تتصرفان بالعناد وترفضان الإجابة عن بعض أسئلة الطبيب. وكانتا غالباً دون مستوى الحساسية في الاستجابة للإيحاءات التي كانت تكشفه حينها كثيراً من العناء والجهد. ومثل هذه المواقف المعاوقة يمكنها أن تعزز وتكرس النزعة المرضية لديهما.

وفي سياق ذلك كله كان فرويد يواجه هذه المقاومات ويصابر على الاندفاعات الهجومية لمرضاه العصابيين دون أن يلجاً هو نفسه إلى العنف في السيطرة على المواقف، إذ كان يسعى لإدراك الموقف وليس الحكم عليه. وقد أتاح له ذلك أن يبني حصاناً واسعاً وأن يكون رأسماً معرفياً ضخماً. وهو بدلاً من الإشارة إلى المقاومة التي يبديها المرضى وضع فرضيته التي تقر بوجود هذه المقاومة داخل المرضى على الرغم من إرادتهم. وبدلاً من النضال ضد المرضى كان يناضل ضد الاندفاعات النفسية المرضية. وفي هذا الصدد يرى فالوري Valery أن علم النفس يهدف إلى إعطائنا فكرة مختلفة عن الأشياء التي نعرفها جيداً. وكان فرويد الشخصية المثلثي التي استطاعت أن تستجلي جيداً هذه الفكرة. فالمريض الذي يبدي المقاومة ليس مسؤولاً في حقيقة الأمر. فالرفض هنا يشكل جزءاً لا يتجزأ من بنية المرض نفسه.

يرى فرويد أن الآباء يقفون موقفاً معادياً من دوافع أبنائهم ويرغبون في إخمادها، ومع ذلك فإن إخماد هذه الدوافع يشكل أحد الأسباب الأساسية

**لوضعية العصاب**، لأنها قادرة على التدخل أحياناً وبصورة واعية في تشكيل أفكار حصرية استحواذية<sup>(١)</sup>. ففي حالة البارانويا Paranoïa (الذهان الهدائي)<sup>(٢)</sup>. قد يحدث أن تتعرض هذه الدوافع للكبت عندما تبدأ مرحلة الحنان الموجهة إلى الآباء وخاصة عند مرضهم أو موتهم. إذا يبدأ التعبير عن الحزن بالتشكل في صورة تأنيب موجه إلى الذات بخصوص ما يعانيه الآباء من موت أو مرض. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه التبكيت أو الشعور بالمرارة الأخلاقية. وقد يتجلّى ذلك بمعاقبة النفس على نحو هستيري.

ويبدو في هذا السياق أن الرغبة في موت الآباء تأخذ عند الأطفال اتجاهًا معاديًا للأب من الجنس نفسه (الذكر ضد الآباء الذكور، والإثاث ضد الأمهات). وتأخذ هذه المسألة نوعاً من التحويل أو النقل Déplacement: فقد يحدث للخادمة على سبيل المثال مثل هذا التحويل عندما تتمني موت سيدتها (ربة عملها) رغبة في الزواج من سيدها.

**هذه الأفكار كما تشير تقصياتنا تشكل المنطلقات الأولى التي اعتمدتها فرويد في النظر إلى ظاهرة العدوان.** وفرويد يعلن عن ذلك بصرامة، وهو يتحدث عن دافع الموت ويلمح في سياق ذلك إلى ظاهرة العنف والانفجارات الانفعالية اللأشورية. ومن المؤسف أن ملاحظاته الأولية هذه قد تعرضت

---

(١) Regard : S. Freud , Lettres de jeunesse, trad. C. Heim, Gallimard, 1990.

(٢) البارانويا Paranoïa ذهان هدائي وهو ذهان مزمن من أعراضه الهزاء الثابت المنظم وقد يبدو المريض سليماً من حيث القراءة على الاستدلال غير أنه يبني استدلاله على اعتقادات وهمية باطلة وهناك أنواع منه كذهان الحب Exalted paranoïa amoureuse وذهان الخيال Religieuse وذهان الغيرة Gealousy وذهان الاضطهاد Persécution وذهان التدين Religieux.

للامبال لمنافحة طويلة. وقد عاد هو نفسه بعد عشرين عاماً لمناقشة دوافع الموت وفقاً لهذه الصورة.

لم يستطع فرويد أن يسيطر على العلاقات التي تربط بين مختلف هذه العناصر لظاهرة العنف والعنوان وذلك حتى 31 أيار 1897، حيث يبدأ في التركيز على العدوانية، من خلال الترابط بين البيئة الأونיבيرية والمعطيات الثقافية، حيث تتكامل هذه العناصر في نسج واحد. وتتجلى هذه القضية في أعماله الأساسية ولاسيما في كتابه "التوتم والتابو" (Totem et Tabou) (<sup>(١)</sup> عام 1913؛ وبؤس الحضارة (Malaise dans la civilisation) (<sup>(٢)</sup> عام 1930، وأخيراً كتابه "الإنسان والميلاد والتوحيد" (Homme, Moïse et monothéisme) (<sup>(٣)</sup> عام 1939).

#### ١- المنافسة الأخوية والأونيفيرية:

يكشف البحث الاختباري النقدي للدراسات الجارية حول الهستيريا بعض الخصائص والسمات النظرية للعدوانية التي تتمثل في مظاهر: المقاومة والكلبة، اللاشعور والصراع داخل الحياة النفسية، أهمية الجنسانية، والتحول. ويمكننا في هذا الصدد الإشارة إلى الاكتشافات الفرويدية الأساسية التي ظهرت في شهري أيلول وتشرين أول عام 1897. لقد تضمنت الرسائل الثلاث الموجهة إلى فلايس Fleiss في الأعوام التالية 1869، 1870، 1871، المعطيات الأساسية لنظائرات راديكالية جديدة.

S. FREUD Totem et tabou(Totem und Tabu, 1912 ,trad. S. Jankélévitch, 7e éd. Payot, (١)

Paris, 1977.

S. FREUD Malaise dans la civilisation(Das Unbehagen in der Kultur, 1930), trad. (٢)

M. Bonaparte, P.U.F., 9e éd. 1983, trad. C. et J. Odier, 10e éd. Paris, 1986.

S. Freud , Moïse et le monothéisme(Der Mann Moses und die monotheistische Religion, (٣)

1939), trad. A. Berman, rééd. Gallimard, Paris, 1967.

وهذا يرى فرويد صعوبات كبيرة في الكشف عن مؤشرات موضوعية في عالم اللاشعور بالطريقة التي يمكن أن التمييز بدقة بين الحقيقة والخيال، وتبدي هذه المحاججة الأخيرة فكرة أساسية في التفكير الفرويدي مفادها أنه يجب الانطلاق من تصور إيجابي للظواهر والنظر بعين الاعتبار والأهمية إلى الحقيقة النفسية والتجربة الذاتية للإدراك وإلى الهوامات التي يثيرها العالم الخارجي.

كان فرويد يلجأ إلى التحليل الذاتي Auto-analyse لسيكولوجيته الخاصة، فهو عندما يتحدث عن هستيرياه الخاصة يذكر حبه الشديد لأمه أثناء مرحلة الطفولة. وينظر في هذه المرحلة أيضا انطباعاته الخاصة عن أخيه الأصغر الذي كان لمجيئه أثار نفسية سيئة. وينظر فيما بعد أن مشاعره الشريرة تجاه ولادة أخيه دفعته إلى إحساس عميق بالتبكيت والملامحة. وهو يبين في هذا السياق كله التكامل بين فكريتين: الإعجاب بالمنافس الصغير والرغبة في موته<sup>(١)</sup>.

وفي الخامس عشر من تشرين الأول عام 1987 أرسل فرويد نتائج تحليله الذاتي إلى فليبيس والتي تتضمن اكتشافه الخاص بأسباب تعلقه الزائد بأمه والغيرة الشديدة التي خبرها تجاه والده: لقد كان فرويد بشهادة الجميع من مقربين وتلاميذ رجلا جديرا طموحا وشجاعا وكان مع ذلك يستشعر في نفسه أحاسيس رهيبة. وهو لا يتصور أبدا أن حالته الشعورية هذه هي الوحيدة من نوعها بل كان يعتقد أن الأطفال جميعا يعيشون هذه الدارما نفسها. وقد انطلق من هذه الفرضية فيما بعد لنفسير مسرحية أوديب ملكا - Roi Edipe بالصورة

---

Regard: D. Anzieu, L'Auto-analyse de Freud et la découverte de la psychanalyse, (1)  
2 vol., P.U.F., Paris, 1975, 3e éd. 1988.

التي عرضها سوفوكل Sophocle على المسرح. في إطار هذه المسرحية كان جميع الحضور كما يعتقد فرويد يعني الخوف لمشاهدته تحويلاً لبعض أحلامه ومشاعره الفعلية. وهذا ما يمكن ملاحظته بالنسبة لهاملت Hamlet عند شكسبير Shakespeare وخاصة مشهد الاتهام الذي تتضح فيه الرغبة في اقرار الخطيئة التي افترفها العم. وهذه التراجيديا تمتلك ظروف البيئة نفسها التي نجدها عند سوفوكل Sophocle ولكنها أكثر موارة وتفنعا.

لقد امتلك فرويد الشجاعة في نشر هذه الاكتشافات المخيفة في الفصل الخامس من كتابه *تفسير الأحلام*<sup>(١)</sup> Interprétation des rêve. حيث يبني فرويد فرضيته التي يقف لها شعر الرأس وهي: أن أحلام موت الأشخاص المحبوبين تترجم الرغبة الحقيقة في موتهم. ويبدو أنه لمن الضروري بمكان خفض درجة القلق عند القارئ من خلال هذه الملاحظة: إذا كانت الأحلام تعبر عن رغبات طفولية فإن رغبة الموت هذه هي نتاج المرحلة الطفولية.

وعلى الرغم من ذلك أراد فرويد تصويب افتراضاته وجعلها أكثر قبولاً حيث يصف لنا الحياة العقلية عند الطفل بمفاهيم غالباً ما تستخدمن للتعبير عن انفعالات الرشد. فهو عندما يتحدث عن الأطفال الطبيعيين في الثانية والرابعة من العمر يشير إلى أنانيتهم المطلقة. وهو لا يقف عند هذا الحد بل يبرهن أن هؤلاء الأطفال في هذا العمر يستطيعون استشعار رغبات جنسية ويعيشون حالة غيره باللغة القوة والوضوح. وينذكر في هذا الخصوص عداونية الأطفال وكرههم لأبياتهم وأخواتهم.

---

(١) - S. Freud , Le Rêve et son interprétation ( ber den Traum, 1901), trad. H. Legros, rééd. Gallimard, Paris, 1969;

يستعرض فرويد في البداية المظاهر الأكثر قبولاً مثل المنافسة الأخوية، ويؤكد كراهية الأخ الأكبر للأخ الأصغر الذي يليه في الولادة والذي يبدو له منافس شديد البأس. ويشير في هذا السياق إلى أمر بالغ الأهمية يتمثل في القول بأن درجة الغيرة التي يعانيها البكر تكون أكثر شدة كلما كانت الفترة الزمنية الفاصلة بينه وبين أخيه الذي يليه بالولادة صغيرة جداً. ويلاحظ في هذا السياق أن لakan Lacan يباشر هذه الظاهرة بالتحليل ويطلق عليها عقدة الطفالة "Complexe de l'intrusion".

هذا ويشكل إحساس الكراهية المتنامي تجاه الأب من الجنس نفسه مسألة حرجية ومعقدة. ففي معرض تحليله لهذه الظاهرة يبدأ فرويد بالتوبيه إلى السبب الأول الذي يبدأ في صيغة خصومة: فالأب من الجنس نفسه يشكل عقبة تعوق حرية الطفل وبخاصة حريته الجنسية، وهذا يؤدي إلى ولادة العداء بين الطرفين. ومن أجل إدراك العنف الذي ينجم عن هذه العداوة يجب أن نأخذ بعين الاعتبار المنافسة التي تجري على المستوى العاطفي. إذ يجري كل شيء كما يقول فرويد وكأن الأب من الجنس نفسه يطرح نفسه منافساً للطفل في معركة حبه للأم. ونجد العرض الأول لفرويد والذي سيطلق عليه فيما بعد "عقدة أوديب Complexe d'Edipe". وسنلاحظ فيما بعد أن العقدة الأوديبية لم تقدم بوصفها قصة حب أو قضية جنسية: حيث تظهر هذه العقدة في عنوانين مثل "أحلام الموت" والتي تشكل إلى حد ما رغبة في القتل، وفي هذا الصدد يعترف فرويد كلياً بأهمية البعد التناصفي في عقدة أوديب. وتتجدر الإشارة في هذا الخصوص، وكما هو مبدأ الحال في مخطوطاته أن المسألة ليست في موقف عداء بل هي هوا فتاك.

ينطوي تحليل الظواهر السريرية الخاصة بالمنافسة والانتقام في كتابه "تفسير الأحلام" على أهمية خاصة. ويبدو لنا أنه كان وعبر محاور عديدة يقاوم اكتشافه الخاص الذي يقوم على أساس أن الإنسان يملك رغبة في قتل الآخرين الذين يحبهم. ويمكن توضيح هذه المسألة في حالة شابة صغيرة تحلم أن ابن أختها الصغير شارل ميت، وهي تشاهد في الحلم الإجراءات نفسها التي حدثت أثناء وفاة الصغير أوتو Otto الطفل الأول لأختها. وعندما عرضت حالتها على فرويد اعترضت قائلة: "انتم تعرفونني جيداً، أتنى لست سيئة للغاية، لا أتنى أن تفقد شقيقتي الطفل الصغير الوحيد الذي تملكه". ولكن فرويد يطمئن الصغيرة، فالحلم يشير هنا إلى مضمون مختلف جداً عن الشيء الذي أشارت إليه الفتاة الحالمة. إن عملية دفن ابن أختها الذي توفي فعلاً كان فرصة لتشاهد الشاب الذي أحبته. هكذا يلخص فرويد الدلالة الجنسية الخاصة بالحلم: فالحلم يمكن الفتاة مرتين من مشاهدة الشاب الذي أحبته في طقوس الدفن السابق لابن الأخت.

إذا كان هذا التفسير الذي يقدمه فرويد لحلم الفتاة الشابة معقولاً إلى حد ما لا يمكن لنا أن نصفه أيضاً أهمية للرغبات العدوانية في أصل هذا الحلم؟ نعتقد أنه يجب أن تؤخذ العدوانية بعين الاعتبار وذلك إذا أردنا حقاً أن ندرك الشكل الخاص الذي يأخذة الحلم. لقد علمنا في الواقع الأمر أن الفتاة التي عرضت حالتها على فرويد تواظب على حضور جميع المحاضرات التي يلقيها الشاب الذي تحبه وهو الذي تشاهده صباح اليوم التالي للحلم وذلك في إطار إحدى الحفلات. والآن لماذا يتدخل سيناريو الحلم، وبعيداً عن ساحة اللحظات الجميلة، ليعبر عن هذه الرغبة في هذه الصيغة الجنائزية إلى هذا

الحد. تكمن حجة فرويد في هذا الخصوص، ولكي لا يتخلى عن تفسيره الخاص برغبة الموت، في أن المريضة لا تعاني من حزن حقيقي في حالة اليقظة، ويستند بذلك إلى أطروحته المنظورة الخاصة بمؤثرات الحلم؛ فالحكاية التي يرويها الحال غالباً ما تكون متخيلة ولكن المؤثرات هي الحقيقة. ولكن ألا يجب علينا هنا مع ذلك أن نتساءل حول طبيعة هذا الافتراض وذلك في ضوء دراسة "ميتاسيكولوجية" لمكونات اللاشعور. وإذا كان فرويد في إطار هذا العمل الأخير يحاول أن يبين بأن الحضور الفعلي للد الواقع هو وحده الذي يمكنه أن يكون مكبوتاً فإنه مع ذلك يقول بأن الد الواقع الأولية تكون في دائرة العدم على نحو كلي إلى حد أنه لا يمكن العثور عليه؟ ويضيف إلى ذلك أنه يمكن للدافع الأولي أن يأخذ صيغة جديدة ولوانا مختلفاً إذ يمكن له أن يتحول إلى قلق وحصر. ومن جهة أخرى وفي النص المكرس لسيكولوجية "عصاب الدفاع" ينظر فرويد إلى إمكانية رفض الدافع الأولي في حالة الذهان، حيث تقارب هنا أعراض الحلم مع الذهان النفسي.

تملك المحاججة الأخيرة، والتي يناسبنا أن نناقشها، قدرتها على تضليلنا وخداعنا. ومع ذلك يبدو أن فرويد كان قد استبعد سريعاً فرضية الميل العدوانى في تحليله لحلم الموت الخاص بابنة الأخت شارل. ولو عدنا نحن إلى اختبار النص من جديد لوجدنا بأن الحالمة كانت ربيبة أختها منذ مرحلة الطفولة. ويلاحظ أن زواجهاً من الرجل الذي تحبه "وهو صديق العائلة" كان يواجه بمعارضة أختها. فهل هناك مغامرة في الإشارة إلى وجود كراهية أولديبية تجاه الأم الأخت، أو أخوية إزاء ابنة الأخت؟ من أجل الإجابة وفق التعبير الفرويدى يمكن القول بأن رأسماً الحلم هو رغبة تتدفع من

اللاشعور. ونحن هنا نتساءل ما إذا كانت الرغبة في رؤية فتى أحلامها محركا أساسيا لهذه الصورة الحلمية.

## ٢- دقائق الصورة المحكمة لتعبير العداوة:

يشير فرويد في كتابه: "علم النفس المرضي للحياة اليومي<sup>(١)</sup> إلى أن العمليات الأساسية المنتجة للعصاب والحلم توجد أيضاً في مجال الحياة النفسية للإنسان العادي البيقظ. ففي سياق عمله هذا - كما هو الحال في أعماله الأخرى المكرسة لدراسة منطق اللاشعور مثل "تفسير الأحلام" - يسعى فرويد دائماً إلى اكتشاف الأشكال الدقيقة التي تأخذها الانفعالات الجنسية والنزعات العدوانية. فالأعمال المهينة، والهفوات، والإهمال، والتrepid، والانحرافات وكل إسقاطات السلوك التي لم تكن في نظر علم النفس في ذلك العصر إلا مجرد انعكاسات لحالات من التعب والشروع، أخذت صيغة جديدة كمؤشرات للرغبة والقلق، والرغبة في الانتقام الاعتراض. وفي هذا الصدد كتب فرويد يقول: ليس غريباً أن نجد عند القديسين فعالية الظواهر النفسية مثل الأنانية والغيرة والعداوة ويشمل ذلك المشاعر والدوافع كافة التي تكون موضوعاً للعملية التربوية، والتي يمكنها أن تدفع إلى ارتكاب أعمال وضيعة، وهي بذلك تعبر عن قوتها وهي قوة حيوية فاعلة وذلك مهما تكن درجة رفضها الصادرة عن المحاكم النفسية العليا. فعلى سبيل المثال يمكن للعبة الكلمات حول اسم أن تكون تعبراً عن احتقار لشخص ما، ويمكن لنسopian

(١) S. FREUD Psychopathologie de la vie quotidienne (Zur Psychopathologie des Alltagslebens, 1901), trad. S. Jankélévitch, rééd. Payot, Paris, 1967; Le Rêve et son interprétation—(ber den Traum, 1901), trad. H. Léglise, rééd. Gallimard, 1969.

اسم منافس أن يكون رغبة في إزالته من الوجود، ويمكن لنسوان موعد أو تحطيم هدية بالمصادفة أن يكون تعبيراً عن نزعة عدوانية.

وفيما يلي نورد مثلاً يبين بدرجة جيدة رهافة تشكيلات اللاشعور في هذا الخصوص، ويتمثل ذلك في قصة أحد المرضى الذي كان يلهم مردداً الأرقام التالية بالصدفة وهي: 426718 لقد استطاع فرويد أن يكتشف أن هناك رقمين ناقصين من أجل اكتمال السلسلة من 1-8 وهمما الرقم 3 والرقم 5. فالمربيض كما يستنتاج فرويد ينتمي إلى أسرة تتكون من ثمانية أطفال وان الرقمين 5-3 هما رقما التسلسل الولادي لطفليمن العائلة يكر هما المريض.

ويمكن للقارئ من غير المتخصصين إزاء هذا التوضيح الذي لخصناه بصعوبة أن يتسمى عن القيمة العلمية لتفسير فرويد. فهل يمكن للأفكار والتداعيات الحرة التي ظهرت بتأثير المدخل النفسي أن تشير إلى أصول المشكلات النفسية؟ لا تعود هذه الأسباب المكتشفة فيما بعد إلى أسباب شرحها الموراثات البيولوجية؟ لا يمكن لفرويد نفسه أن يكون ضحية لخرافات استعراضية؟ وإذا لم يكن ذلك إلا يمكن للصدفة أن تكون قد أدت إلى محاكمة وهمية؟ ومع ذلك كله لا يمكن للعبة التداعي أن تبرهن على شيء ذي أهمية؟ علينا دائماً أن نكون على دراية دائمة بأن التفسيرات النفسية قابلة دائماً من حيث المبدأ للمناقشة وليس أمامنا أبداً غير هذه الإمكانيات الواسعة لطرح احتمالات التفسير. وفي إطار هذه العلاقة فإن وضعية المدخل النفسي مشابهة لوضعية المؤرخ أو لوضعية رجل المباحث أو قاضي التحقيق. وفي إطار ذلك كله - حتى لو كان الحديث حول قضية نفسية - يجب دائماً وبعنابة مناقشة ما هو ممكن أو محتمل أو حقيقي على وجه الإطلاق.

لترك الآن جانبًا هذه المسائل الإبستيمولوجية والتي ما زالت حلولها بعيدة المنال. ولكن علينا في هذا المسار وعلى الرغم من ذلك كله أن نعترف بأن مؤسس التحليل النفسي كان يمتلك الجدارة التي جعلته قادرًا على إحداث انقلابات مدهشة في مجال تفسير السلوك الإنساني.

لقد رفض فرويد في دراساته حول الهستيريا النظر إلى قابلية الاستئثار، وإلى مواقف الكتمان والتحفظ عند المرضى بوصفها مظاهر سلوكيّة عدوانية بسيطة، ولكن في هذه المرة يؤكد وجود نزعة عدوانية في داخل هذه الأنماط السلوكية لا يدركها الشخص المعنى نفسه<sup>(١)</sup>. وهو من هذا المنطلق بدأ يفكك رمزية الأحلام الغامضة، وخاصة تلك المشبعة بروحانياتها وغموضها. وهنا يأخذ علم النفس لديه مساراً جديداً وكأنه محاولة في اكتشاف الأشباع وإسقاط الأقنعة التي تحيط بالرغبة. وهو في سياق ذلك كله يعمل على إعادة تقويم الدلالات وإعادة توزيع المعاني التي تبعث التفكير على الأمل.

### ٣ - الدوافع الجنسية السادسة:

لقد تخلى فرويد منذ عام 1897 عن نظريته التي تقول بأن الإغراء الجنسي المبكر يمكنه بمفرده أن يكون سبباً للهستيريا Hystérie<sup>(٢)</sup>. وينطلق إلى دراسة البعد الداخلي لمسألة العصاب: فالمحيط لا يفسر كل شيء،

(١) Regard: S. Freud & J. Breuer, Etudes sur l'hystérie – ber den psychischen Mechanismus hysterischer Phénomene, 1893; Studien über Hysterie, 1895), trad. A. Berman, 2e éd. P.U.F., Paris, 1967.

(٢) الهستيريا Hystérie: عصاب من سماته البارزة القابلية الشديدة للإيحاء والتقلب والانفعال وضعف الشحنة الوجданية وتفكك محتوى الشعور والصراع بين الذات الوعائية واللاشعور المكبوت. وهو ضرب من ضروب التكيف الناقص.

والاضطراب لا يمكن أن يتحدد نهائياً بتأثير الوسط الخارجي. فالكائن الإنساني في بيئته الداخلية معنى بذلك بطريقة أو بأخرى شعورياً أو لا شعورياً. وبناء على ذلك فإن الأعراض المرضية تجد في الشخص نفسه أسباباً جوهرية. وإذا كان الأطفال يعيشون بعض التجارب التي تحمل طبيعة جنسية فإنه يحق لنا أن نفترض أن لديهم انفعالات وميولاً و هوامات جنسية، ولذلك لا يمكن أن نتهم الراشدين فحسب وأن نحملهم مسؤولية البحث عن اللذة وحدهم.

لقد أشار فرويد مئات المرات إلى السمة الإشكالية المتداخلة لمفهوم الغريزة (Trieb) الذي يمتلك قوة الدفع الداخلي. ولم يتوقف فرويد منذ عام 1905 حتى نصوصه الأخيرة أبداً عن استخدام هذا المفهوم. ونظراً للأهمية التي يحتلها هذا المفهوم في سياق نظرية فرويد يترتب علينا دراسة العلاقة بين هذا المفهوم وإشكاليتنا الحالية: العدوانية.

لقد بدأ المفكرون، على أثر مؤسس التحليل النفسي، يستدلون في مرجعياتهم إلى مفهوم الدافع الجنسي (Pulsion sexuelle). مع ذلك يمكن تعريف قوة الدفع الغريزة (Trieb) بأنها طاقة حيوية بسيطة تؤثر باستمرار وبدون توقف وهي ترتبط بالوجود المادي للإنسان ولها قدرة كبيرة على الظهور في أشكال وصيغ مختلفة<sup>(١)</sup>.

أ) يشير مفهوم (Trieb) في اللغة الألمانية إلى قوة نمو نباتية وتشير هذه الكلمة في اللغة الجارية إلى التجربة الذاتية التي يكون الفرد بموجبها تحت

---

(١) Regard : S. Freud , Trois Essais sur la théorie de la sexualité(Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie, 1905), trad. B. Reverchon-Jouve, Gallimard, Paris, 1962.

تأثير ضغط داخلي يكره المرء على أداء فعل ما بطريقه ما. وانسياقاً مع هذه الصيغة يعرف فرويد الدافع بوصفه اندفاعاً أو دفعه (Poussée). وهذه الخاصة الدفعية الداخلية خصيصة عامة للدافع وهي وبالتالي شكل جوهر وجودها. وهي تعني أيضاً قوة أولية نابعة من الداخل لا يمكن للنزاعات الأخرى أن تخفف من غلوانها واندفاعاتها.

ب) وينصح من خلال الملاحظات التربوية أن هذه الاندفاعة تشكل حالة فعل يتصف بالديمومة. ومهما يكن الأمر فإن الكائن الإنساني لا يمكنه أن ينفلت كلباً من تأثير هذه الطاقة. فاندفاعاتها تحاصره دون أن يشعر بإكراهاها، وهي تهاجمه بقوة من الداخل بصورة لا شعورية. لقد أشار فرويد غالباً إلى القوة القهريّة وإلى النزاعات الدفعية التي تشكل بدورها نوعاً من الضرورات الداخلية النازعة إلى السيطرة والسيطرة. وهي ذاتها التي تصبح جوانب الحياة الإنسانية بالطبع الشيطاني.

ج) يؤكد فرويد بصورة مميزة أهمية خاصة ثلاثة مدونة في قائمة الانحرافات في تاريخ الثقافة وهي قابلية الدوافع الرمزية وهي قابلية مذلة. وقد أشار إلى هذه المطواعية في المرة الأولى التي حدد فيها مفهوم "التربيب" الغر viz 1905 "Trieb" وأشار في هذا السياق نفسه إلى قابلية التفاعل الداخلي للدفعية في إطار أهدافها وتوظيفاتها. وتلك هي السمة التي تميز بين مفهومي الدافع *Pulsion* والغر viz *Instinct*: فالدافع ينمو من غير غاية محددة ويأخذ أشكالاً باللغة التعدد وباللغة الانحراف. وهي أشكال قادرة على إحداث انقطاعات عنيفة ويمكنها في إطار هذا التوجه أن تأخذ طريق التسامي *Sublimation* في أرقى أشكاله.

د) وفي النهاية ومن أجل تحديد الدافع ومصادره يشار إلى تأكيد فرويد في تعريفه للدافع على أهمية الجانب البيولوجي حيث يقول: "يبدو لنا الدافع وكأنه مفهوم يتوسط جانبي النفس والجسد وكأنه تعبير نفسي يصدر عن البنية الداخلية للجسد لينعكس في البنية النفسية وكأنه معيار لمنطلقات العمل المفروضة على الجانب النفسي في إطار علاقته الجسدي للكائن، وهذا يعني أن أصول السلوك قد تكون كامنة في إطار العمليات الجسدية الفيزيولوجية.

ومع ذلك لا يمكن الاستنتاج بوجود علاقة ميكانيكية بين الجسد والنفس. إذ يعتقد فرويد في هذا الخصوص أن الهوة التي تفصل بين الدوافع والجانب النفسي لا تعني إطلاقاً استغراق الدوافع نهائياً في الجانب البيولوجي. وهو يشير بدقة إلى أن هذه الدوافع انعكاس جسدي لما هو نفسي. وهي - أي الدوافع - تأخذ عند كل حالة صيغة تتناسب مع شروط وجودها الخاصة. إن هيمنة الدافع الواقعية لا تعود إلى مجرد القوة الطبيعية الخام بل هي في جوهرها مشبعة بالطاقة النفسية، ومن هذا المنطلق كان ميرلو بونتي (1945 Merleau - Ponty) يعتقد بأن دلالة التحليل النفسي ليست في إرجاع النفسي إلى البيولوجي بل في الكشف عن الجانب النفسي في الوظائف التي يعتقد غالباً بأنها بيولوجية وجسدية على نحو كلي.

لقد ظهر مفهوم الدافع Pulsion في كتاب فرويد: "ثلاث مقالات في نظرية لجنس Trois essais sur la théorie de la sexualité". وذلك عام 1905 وهو الكتاب الشهير الذي جعل فرويد في مواجهة أعداء كثُر وتحديات كبيرة<sup>(١)</sup>.

(١) S- Freud, *Trois Essais sur la théorie de la sexualité* (*Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie*, 1905), trad. B. Reverchon-Jouve, Gallimard, Paris, 1962.

ولا يخفى على أحد اليوم أعمال فرويد الخاصة بالانحرافات الجنسية  
وهو يقرر في هذا الصدد:

- (أ) كل انحراف هو إفراط في نشاط المركب الطبيعي للجنسانية على حساب المركبات الأخرى.
- (ب) يظهر هذا المركب الجنسي ويمكن ملاحظته منذ مراحل الطفولة الأولى المبكرة.

لقد أخرج هذا التصور الانحرافات الجنسية و خاصة السادية Sadisme من كهوفها المظلمة. ومع الاعتراف بوجود تمييز بين الطبيعي والمرضى فإن فرويد يعطي مفهوم السادية أبعاداً جديدة وذلك بطريقة يشعر فيها كل فرد بأنه معنى بالأمر. وهو في سياق ذلك يبرر شرعية بعض أشكال هذه السادية وخاصة هذه التي تعد امتداداً للحياة الجنسية الطبيعية. يرى فرويد في هذا السياق أن الحياة الجنسية عند أكثر الأفراد تتضمن نوعاً من العنف الذي يتحمّل نحو السيطرة، وتكمّن الدلالة البيولوجية لهذه النزعة في ضرورة الانتصار على المقاومة التي يديها موضوع الجنس حتى ولو كان ذلك بطريقة الإغراء. ولكن فرويد ومع ذلك لا يوضح معنى النزعة السادية وأصولها. فهو ينظر إليها بوصفها مجرد تعبير لبديي Libidinal وأحياناً يعيدها إلى مصدر مستقل عن الجنسية. وهو في الحالة الأولى ينظر إلى السادية كنزعة تحقيق متعة عضلية، وكذلة من النشاطات ذات الطابع التدميري. أما في الحالة الثانية فإنه ينظر إليها بوصفها أداة من أجل السيطرة، ومهما يكن الأمر فإن فرويد يكشف عن طبيعة النزعة العدوانية وعن أبعاد السادية وذلك عبر العلاقة الأولى التي تقوم بين الطفل ومحبيه. كتب فرويد في هذا الموضوع

يقول: "يمكنا القول إن النزعة إلى العنف تتعدد انتلاقاً من دافعية السيطرة التي تظهر في إطار الحياة الجنسية وذلك قبل أن تأخذ الأعضاء الجنسية دورها الكامل وذلك في مستوى نموها".

وتسسيطر هذه النزعة السادية على مرحلة من الحياة الجنسية التي نطلق عليها مرحلة ما قبل التناسلية Prégénital، ويتحدث فرويد أيضاً عن المرحلة الشرجية ANAL بوصفها مرحلة سادية. ولقد شكلت هذه الملاحظات نقطة الانطلاق لأبحاث ودراسات علم النفس الجنسي وعلم الطياع. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أعمال كارل أبراهام Karl Abraham وإلى أعمال ميلاني كلن M.Klein الخاصة بالسادية الفموية وإلى أعمال إيريكسون Erikson الخاصة بالنمط التدميري للمرحلة القضيبية Phallique.

وهنا يبين فرويد أن التجربة الجسدية تشكل منطلاً يحدد اتجاهات الفرد. ومع ذلك فإن الدلالة الخاصة التي تأخذها هذه التجربة تتشكل وفقاً لتاريخ الفرد الشخصي. فالاندفادات توظف كتعزيز لعملية استئهام وتصورات خيالية توجه عبر قواعد خاصة بها. ومن هذا المنطلق فإن التحليل الفيزيولوجي لا يمكنه أن يفسر لنا السلوك. حيث يجب على الباحث أن يبحث بصير وأنأة في إطار حالات عيانية وعبر منظومة من شبكات الدلالة.

إن إدراك الطفل لمحيطه بوصفه عقبة أمام تحقيق لذته المبكرة عبر عملية إخراج الفضلات مسألة تتطوّي على أهمية خاصة. وذلك يساعدنا على سبيل المثال في أن ندرك هذيان شرير الخاص بتدخل قوى سحرية في عملية التبرز. فالهوا FANTASME الجنوني لا يمكن أن يفسر ببساطة كنتيجة لبنيّة الجسد أو كنتاج لارتفاع داخلي في طاقة الدافعية.

ويمكن القول إن فرويد يؤكد أن إدراك ظاهرة السادية (بالمعنى الضيق أو الواسع لكلمة) يتطلب العودة إلى معطيات الجسد والبنية النفسية وإلى العلاقات الشخصية للفرد وذلك في آن واحد.

#### ٤- أهمية التوازن العاطفي:

عندما يواجه الناس صعوبات كبيرة في إطار علاقاتهم الجنسية فإنه لا يمكن أبداً تفسير مشكلاتهم انطلاقاً من مبدأ البحث الذي يعتمد مبدأ المصادفة الاعتباطية أو من البحث في الجانب الخارجي لحياتهم النفسية. يتحدث فرويد في إحدى مقدماته حول علم نفس الحياة العاطفية *Contribution à la psychologie amoureuse*<sup>(١)</sup> عن المرحلة التي يشعر الفرد فيها بالغيرة، وهو في سياق ذلك يستغرب الاعتقاد بأن شيئاً ما في الجنسية ذاتها يمنع من تحقيق الإشباع الكامل. فهناك ظواهر عديدة تؤكد أن الطبيعة غير كافية بذاتها من أجل إرضاء وإشباع الرغبة الجنسية. وهذا ما تشير إليه ببساطة الممنوعات الثقافية. بعض الدوافع الجنسية لا يمكنها في أغلب المجتمعات أن تجد لها إشباعاً كاملاً. وهناك ملاحظة خاصة بالعلاقة بين الجنس وعالم الاستيهام أو التصورات الهوامية والتي تعبّر عن الصلة بين الدوافع الأوليّة اللبنيّة ومرحلة النضج الجنسي؛ وهناك سبب آخر يتعلق بالقدر البائس للجنسية الإنسانية ذلك الذي يعبر عن الخسارة المؤكدة للموضوع الأصلي (الأم في مرحلة الطفولة).

---

(١) S- Freud, «Contribution à la psychologie amoureuse»(Beiträge zur Psychologie des Liebeslebens, 1910-1912-1917), trad. J. Laplanche et D. Berger, in La Vie sexuelle, P.U.F., 1969; Un souvenir d'enfance de Léonard de Vinci(Eine Kindheitserinnerung des Leonardo da Vinci, 1910), trad. M. Bonaparte, Gallimard, Paris, 1977.

وإذا كان إدراك التوازنات الداخلية للدافع الجنسي يشكل غايتها فإنه يمكننا العودة إلى فرويد الذي أعطى هذه التوازنات جل اهتمامه وذلك عندما كان يحاول اختبار المضامين الجنسية لدافع العنف. كتب يقول في هذاخصوص: "يجب أن ندرك أهمية الجانب الكبير الذي تطبعه دافعية العنف في السلوك الاجتماعي للمربيض وذلك عبر العلاقة القائمة بين هذه الدافعية والليبيدو Libido والتي يمكنها أن تفسر عملية تحول الحب إلى حقد والمشاعر الودية إلى مشاعر عدوائية وهذا ما تتميز به مجموعة الحالات الخاصة بالأمراض العصبية وخاصة السمات الخاصة بالهوس الجنوني paranoïa في جملتها.

وبالتالي فإن التداخل الذي يتم بين المشاعر الودية والعنف لا يوجد فحسب داخل الحياة النفسية للمرضى. فالعلاقات على سبيل المثال بين الصهر والحماء كما يلاحظ فرويد هي علاقات متوازية عامة تتدخل فيها مشاعر المحبة والكرابهة في آن واحد. ويمكننا أن ندرك ذلك بكل بساطة ومن خلال المحاكمة المنطقية: فالآلم تزيد دوام سيطرتها على ابنتها وهي حذرة من هذا الغريب الذي يسيطر على طفاتها. والصهر من جانبه يشعر بالغيرة من الأشخاص الذين يبدون تعلقاً بزوجته وذلك يشكل أحد الأسباب القوية الفهريّة لغيرته. وهنا يترتب على التحليل النفسي أن يبين وبدرجة عالية من العمق وجود صراع هوامي أوديبي في داخل النشاطات السينكولوجية الدفينة. فالآلم تتقصد شخصية ابنتها كما يقول فرويد حيث تقع أم الزوجة في حب صهرها. وهي تستطيع لاحقاً أن تحطم هذه المشاعر الودودة وان تتوacial مع مشاعر سادية بإثارات عاطفية مندفعـة، هذا ويشعر الصهر بصراعات مماثلة وذلك

حين يلامسه هواه قوامه أن الحماة تحتل مكان الأم وذلك يوقف في نفسه ميلاً دائمًا إلى المحرم. وهو وبالتالي يتخلص من هذه الوضعية بطريقة سادية ذات طابع جنسي.

ويعزز فرويد تحليله لهذه المسألة حين يحاول أن يتبيّن أن حالة الهيجان تأتي تعبيرًا عن صراع نفسي وهنا نجد الملاحظات الأولى حول ظاهرة المزاج والطبع المتسلط حيث يذهب فرويد هذه المرة بعيداً جداً في تفسيره وذلك حينما يريد أن يبرهن بان النزعـة إلى العنف يمكن أن تظهر بطريقة وكأنها الجانب الوحيد الذي يمكن مشاهدته كتعبير عن العلاقة البينية.

لقد استخدم فرويد وللمرة الأولى مفهوم الازدواج الوجوداني Ambivalence والذى يشير إلى نزعـات نفسية متعارضة وغير قابلة للتوافق في آن واحد. ففي مقالته حول دينامية التحول (*Dynamique du transfert* 1912)، يتلفـق فرويد هذا المفهوم Ambivalence عن بلولر (Bleuler). وعلى الرغم من غياب هذا المفهوم في مفرداته السابقة فإن الفكرة كانت تطرح ثقلـها في إطار أعماله الأولى. وكان فرويد يستدعي الاهتمامات والملاحظات القديمة حول الكائن الإنساني. وبالتالي فإن اكتشافه العملاق انطلق من فكرة الصراع النفسي ومن التناقضات العاطفية المتعلقة بالكبت Refoulement.

ومن أجل تحليل مفهوم الازدواج الوجوداني Ambivalence وقوامه ثنائية مشاعر الحب والكرهـية والذي لا يعدو أن يكون أكثر من حالة خاصة للصراع النفسي قام فرويد بإجراء تحليل نفسي لمجموعة من المشاهير وانصرف لتأملاته ودراساته حول الدوافع. ونجد في هذا السياق أن تفسير مفهوم الثنائية الوجودانية Ambivalent كان يتـأرجـح عند فرويد بين تفسيرات

ذات طابع بيولوجي وأخرى ذات طابع بسيكولوجي. ففي مقالته السابقة "دينامية التحول" على سبيل المثال يقول فرويد أن القوة الفاعلة للصراع الوجداني كما تتجلى عند العصابيين الوسواسيين تقتضي تقسيراً في ضوء المعطيات الدافعية حيث توجد تعارضات ملزمة لحياة الدوافع.

وفي مرحلة لاحقة يشير فرويد - في كتابه "التوتم والتابو" Totem et Tabou<sup>(1)</sup> وذلك انتلاقاً من تحليل الصراعات الانفعالية عند مشاهير الأوديبين - إلى أن الفرصة كانت مهيئة لإدراك مفهوم التناقض الوجداني Ambivalence بالمعنى الخاص الكلمة والذي يتمثل في الحضور المتكافئ للحب والكراهية في آن واحد وبالنسبة للشخص الواحد الذي يوجد في أصل الصيغ الثقافية الهامة للحضارة. ولكن مع ذلك فإننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن أصول هذه الثنائيات الوجدانية. ولكن يمكن الافتراض بأن هذه الثنائية تشكل ظاهرة أساسية لحياتنا الانفعالية. ومن الممكن لفت النظر إلى إمكانية أخرى مفادها أن الازدواجية الوجدانية كانت موجودة في الأصل بعيداً عن حياتنا الانفعالية وأنها فيما بعد اكتسبت أهمية خاصة لمصلحة العقدة الأبوية Complexe paternel. وهذا تكمن تحديداً قدرة التحليل النفسي في الكشف عن أهمية هذا الازدواج الوجداني Ambivalence وفعاليته.

ويعد الإصرار على أهمية المكان الذي يحتله مفهوم الازدواج الوجداني Ambivalence في إطار الحياة النفسية من أهم معطيات التحليل النفسي وأكثرها تمسكاً. وانتلاقاً من هذه النقطة بالذات ومع أنها ندرك أنه يمكن

---

(1) S. FREUD Totem et tabou(Totem und Tabu, 1912), trad. S. Jankélévitch, 7e éd. Payot, Paris, 1977.

لصيغتنا أن تكون كاريكاتورية وغير مرضية فإننا نود أن نقول إن الرقم(2) هو بمعنى ما واحد من أبناء التفكير الفرويدي، وبالمقابل يمكن القول أيضاً بأن الرقم(1) يمثل النظام الفكري عند Adler كما هو الحال بالنسبة لكارل Rogers (Karl Rogers)، وأن الرقم(3) يمثل منظومة الديالكتيك الهيجلي.

وهذا من شأنه أن يدعونا إلى التأمل في مفاهيم مثل: الانشطار Clivage والشعور Conscient وما قبل الشعور Préconscient ثم المجموعات المتعارضة مثل: السادية Sadisme والماسوشيه Masochisme ثم تعارض الرغبات وتعارض الممنوعات والازدواجية الخاصة بالد الواقع مثل: د الواقع الجنس ود الواقع الأنا، د الواقع الحياة ود الواقع الموت. وهناك أيضاً مفاهيم الصراع بين اللحظات السيكولوجية: مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، والصراع بين النزعة إلى الانسحاب والنزعـة إلى المواجهة، ثم حضور النزعـات الإيجابية والسلبية، الأنوثية والذكورية... الخ.

فالأشياء كما ينظر إليها فرويد في حالة صراع وهذا الصراع لا ينتهي بالضرورة إلى صيغة توافق فلا يوجد هناك تناقض مسبق ولا يوجد هناك توازن أبداً. فالصراع هو في قلب الوجود وقدر الإنسان أن يحيا في وضعية صراع مأساوية لا حدود لها.

## ٥ - المظاهر النفسية السريرية:

تنصف طروحات فرويد الإكلينيكية بالغنى إلى حد لا يمكننا فيه أن نستعرض في هذا المقام جل تفاصيلها. ولكن يمكن أن نلمح إليها ونرسم بعض اتجاهاتها وذلك لأن جل اكتشافات فرويد الهمة تقع في إطار هذه

الطروحات الفكرية الهامة في مستوى الملاحظات الإكلينيكية السريرية وليس في مستوى التأملات الخالصة. وفي هذا الصدد كتب فرويد في رسالة له إلى باستور فيستر Pasteur Pfister في 12 تموز 1909 بخصوص الكتب المخصصة لدراسة الحلم يقول: "إنها الرغبة للبحث في الشيء نفسه بدلاً من الأدب الذي يحيط به"<sup>(١)</sup>.

لقد استطاع فرويد عبر تحليله لسلوك فتاة شابة مصابة بالهستيريا تدعى دوراً أن يدرك أن الغيرة العاطفية التي أمكنها أن تخفي ميلاً يعود إلى الجنسية المثلية Homosexualité بالنسبة للمنافس. لقد رغبت المريضة دوراً في أن تجعل من أبيها صورة لمعلمتها ليس ذلك لأنها تحب أبيها فحسب بل لأنها هي نفسها كانت مشدودة إلى هذه المرأة.

وقد ساعدت دوراً فرويد على اكتشاف أن السلوك العدواني خلال فترة المعالجة يمكن أن يكون تكراراً لسلوك مقنع وذلك إزاء موضوع جديد للعدوانية التي تظهر بصورة أبوية. ويطلق فريد على هذه الفعالية التحول السلبي (Transfert négatif) ويدركنا هذا الموضوع أن عملية التحول لا تحدث عند المرضى النفسيين فحسب بل في مستوى العلاقات الشخصية برمته. وكما تؤكد في هذه الحالة شهادة الصغير هانس على سبيل المثال حول علاقة الإنسان بالحيوانات.

لقد تبين لفرويد من خلال معالجة رجل القرآن Homme aux rats أهمية "الهوامات" العدوانية للمرضى الوسواسيين. هؤلاء المرضى يتصرّرون هوامياً

---

(١) S. FREUD & O. PFISTER, Correspondance avec le pasteur Pfister. 1909-1939, E. L. Freud et H. Meng éd., trad. L. Jumel, Gallimard, Paris, 1966

أنهم يقتلون الناس الذين يضايقونهم: وهنا يتحدث فرويد عن عقدة الموت Complexe de mort ليبين معالم هذه الطريقة التي يلجأ إليها الإنسان لحل الصراعات وذلك عن طريق إبعاد الناس المزعجين أو غير المرغوبين.

لقد بين التحليل النفسي أن الازدواج الوجданى Ambivalence بين الحب والكراهية يأخذ أشكالاً مأساوية خفية عند الوسواسيين. ويتصح ذلك في مثال المريض الذي كان يعاني من ميل قهري لقتل امرأة كانت سبباً لإبعاده عن صديقه. ويأخذ هذا الميل فكرة داخلية مسلطة عند المريض تتمثل في الصراع بين فكريتين: معاقبة الذات أو معاقبة الآخر وذلك دون انقطاع. ويمكن القول في إطار هذه الحالة إن التصورات المتعاقبة تمثل في الواقع الأمر صورة معكوسة للتصورات التي تسجل حضورها في ساحة الوعي: إبعاد الصعوبات ثم معاقبة النفس.

لقد سمحت الحالة السابقة لفرويد أن يؤكّد مصداقية فرضيته الأساسية التي تقول إن الشك والنسيان والألم النفسي الوسواسي أمور لا تعبّر ببساطة عن قصور فطري للنشاط النفسي كما يعتقد جانه Janet ، بل هي نتاج للألام الداخلية للحقد والكراهية والاندفاعات السادية المقهرة.

وفي هذا السياق يشكل التحليل الذي أجراه فرويد حول ذكريات الزعيم شريرer Shreber (١٩١١) وثيقة فرويد لدراسة الذهان Psychose. يبين هذا التحليل أن العنف الذي يوجه إلى الآخرين لا يمكن أن يكون إلا تعبيراً عن الصراعات الداخلية عند الإنسان. فشرير كان يناضل ضد نزعاته الجنسية وهو في إطار كان يتصرف على نحو متوازن من الناحية الانفعالية، حيث يبدو كالموت عندما يهاجم موضوع إعجابه (صورة أبوية). ويمكن القول إن

الكراءية هنا لا تأخذ المعنى ذاته عند دورا Dora ففي الوقت نفسه الذي تبدو فيه الشابة دورا عدوانية إزاء منافسها في حبها. فإن شيربر يدافع عن نفسه بقوة ضد اندفاعاته الخاصة، وينتصر لنفسه ضد الشخصية التي تشكل مصدر تعذيبه. فالمعركة التي يخوضها المصاب بالذهان (paranoïa) تهدف في نهاية المطاف إلى السيطرة على النزاعات الترجسية narcissisme الخاصة.

ويمكننا هنا أن نتوقف وقفه خاصة عند تحليل فرويد لحالة طفل في الخامسة من عمره، وذلك لأن هذا النص يعطي صورة كاملة تقريباً عن التصورات الفرويدية حول العدوانية في عام 1909.

يبين فرويد بوضوح حالة الصراع الوجدي عند الطفل الصغير هانس Hans: فالطفل يحب أبيه الذي يوفر له الحماية والذي يشكل نموذجه المثالي Idéal du moi، ولكن هانس هذا يريد فحسب ويدافع من حبه لأمه أن يحتل مكان أبيه ويتمنّى له من أجل ذلك أن يختفي من حياته إلى الأبد. ومثل هذا الاصطفاء النفسي يفسر سلسلة من الظواهر المختلفة: تعديل الاندفاعات العادلة وإظهارها في شكل رفيق وناعم والخوف من الانتقام أي الإخلاص Castration<sup>(١)</sup> الذي يأخذ في هذه الحالة صيغاً متعددة كالخوف من عضة الحصان. وذلك برهان على فعالية قانون التأثر في مستوى التصورات، كما يمكنه أن يأخذ مظاهر التمرد الحاصلة التي لا تشير إلى تعبيرات عدوانية بل تتضمن ميلاً إلى إيقاع العقاب بالنفس من أجل الحد من الشعور بعقد الذنب .Complexe de Culpabilité

---

(١) قلق النساء Angoisse de Castration: الخوف اللاشعوري من فقد العضو الجنسي بسبب الميل الجنسي إلى المحرم.

وهناك مصدر آخر للنزعـة العدوـانية يـتمثل في المنافـسة الأخـوية (Rivalité Fraternelle). لقد بدأـت الصـعوبـات التي يـعانيـها هـانـس الصـغـير فيـالـثـالـثـة والنـصـف منـعـمرـه أيـبعدـولـادـةـأخـتهـوـذـلـكـهوـالـحـدـثـالـأـكـثـرـخـطـورـةـفيـحـيـاـتـهـ.ـولـمـيـسـتـطـعـالـطـفـلـعـبـرـالـهـوـامـاتـ(Fantasmes)ـوـأـعـراـضـهـالـمـرـضـيـةـأـنـيـتـخـلـصـمـنـشـعـورـهـالـعـمـيقـبـالـغـيـرـةـمـنـأـخـتهـهـاـنـاـ(Hanna).ـوـهـنـاـيـمـدـنـاـفـرـوـيدـبـعـضـالـأـمـثـلـةـالـخـوـفـمـنـالـغـرـقـوـالـذـيـيـعـرـعـبـعـرـغـةـهـانـسـفـيـإـغـرـاقـشـقـيقـتـهـأـوـتـصـورـهـانـسـأـنـأـخـتهـقـدـسـقطـتـمـنـعـلـىـالـشـرـفـةـ.

ويتصدر رهابـات Phobies هـانـسـالـصـغـيرـرهـابـمدـمـرـلـلـغاـيـةـ هوـالـخـوـفـمـنـالـعـربـاتـعـالـيـةـالـحـمـولةـمـثـلـعـربـاتـالـنـقـلـالـكـبـيرـةـ،ـأـوـنـاقـلاتـالـفـحـمـحيـثـيـخـشـيـأـنـتـسـقـطـالـأـحـصـنـةـالـتـيـتـجـرـهـاـ.ـوـهـنـاـيـكـشـفـالـتـحلـيلـالـنـفـسـيـأـنـالـصـغـيرـكـانـصـحـيـةـاعـقـادـقـوـامـهـأـنـالـأـطـفـالـالـصـغـارـيـأـتـونـ(ـيـولـدـونـ)ـمـنـداـخـلـصـنـدـوقـمـاـ.ـفـالـكـلـمـةـالـأـلـمـانـيـةـNiederommenـتـشـيرـإـلـىـعـنـىـمـزـدـوجـالـولـادـةـأـوـالـوـضـعـوـهـذـاـيـمـثـلـحـدـثـمـرـهـوبـالـجـانـبـبـالـنـسـبةـلـهـانـسـ(ـولـادـةـشـقـيقـتـهـ).ـوـاسـتـطـاعـفـرـوـيدـبـعـدـعـدـةـسـنـوـاتـلـاحـقـةـأـنـيـكـشـفـأـنـصـورـةـ"ـالـكـمـيـونـ"ـالـشـاحـنـةـكـانـتـتـعـنيـالـأـمـالـحـامـلـكـماـتـبـيـنـمـنـذـكـرـيـاتـطـفـولـةـأـحـدـمـرـضـاهـالـذـيـتـجـاـزـخـمـسـيـنـمـنـعـمـرـهـ.ـوـانـطـلـقاـمـنـذـلـكـاسـتـطـاعـفـرـوـيدـأـنـيـسـلـطـالـضـوءـعـلـىـبعـضـجـوـانـبـالـصـغـيرـهـانـسـ،ـوـخـاصـةـعـلـىـالـدـوـرـالـعـدـوـانـيـلـطـبـيـعـةـالـعـصـابـاتـالـرـهـابـيـةـ.ـوـهـوـيـشـيرـفـيـهـذـاـالـصـدـدـإـلـىـالـظـاهـرـةـالـتـيـلـطـالـمـاـعـرـفـهـاـجـيـداـالـأـطـبـاءـالـيـوـمـوـهـيـالـخـوـفـالـذـيـيـشـعـرـبـهـالـرـهـابـيـوـنـمـنـأـنـيـوـجـدـوـفـيـحـالـةـيـتـعـرـضـونـفـيـهـاـلـلـهـجـومـأـوـلـلـانتـقـامـ.

إن الموضوع الأخير لعدوانية هانس هي الأم حيث كان يعاني من مشاعر الكراهة تجاه أمه وذلك لأنها أنجبت له منافسة، ولأنها أيضا لا تنظر إليه بوصفه ندا لأبيه ومكافئا له. ومع ذلك لم تكن خيبات الأمل والتزعة إلى الانتقام هي التعبير الوحيد عند هانس. لقد سمح تحليل فرويد بالوصول إلى مصدر آخر للعدوانية: الاندفاعات اللبنيّة السادية Sadisme. وهنا يتحدث فرويد عن الرغبات السادية الغامضة عند هانس وهي "دافعية سادية مرنة"، كما يتحدث عن بداية تشكيل علاقات جنسية مبكرة. وهناك أمثلة عديدة ظهرت في هومات هانس مثل تجاوز هانس لسياج ما أو تحطيمه لنافذة القطار. وكان فرويد يتصور أنه يستطيع أن يفسر بالطريقة نفسها ظاهرة القفز بكل معانيها أو ظاهرة الصراخ والقول "إنني مهر صغير" هذه الرغبة في الحركة كما يعلن فرويد تشمل على مضامين جنسية. ويتبين من حالة هانس، وذلك في المرحلة الأولى من التحليل، أن فرويد استطاع أن يميز بين الاندفاعات السادية ذات الدافعية اللبنيّة والإحسان بالغيرة العدائية والتي تعبّر عن ردود أفعال جريحة وهو يمايز في شروحته بوضوح بين البعدين ويرجعهما في نهاية الأمر إلى جانبين من جوانب الدافع الجنسي: فالجنس في هذه المرحلة كان يشكل المحور الأساسي لمنظومة التفسيرات الفرويدية.

## ٦ - السلطة القهريّة :Autorité Coercitive

بديهي أن فرويد يولي أهمية كبيرة للصراعات النفسيّة وللرقابة الداخلية التي يمكن أن نطلق عليها عملية الكبت الذاتي Auto - refoulement. ومن هذا المسار يجد فرويد نفسه وعلى نحو تدريجي مدفوعا إلى تحليل علاقات الفرد مع نفسه، ومن ثم إلى دراسة هذه العلاقات التي تربطه مع المجتمع، وهو

يعتقد في هذا الصدد أن الثقافة التي يتميز بها الإنسان ترتبط جوهرياً بالبنية النفسية عند الأفراد ويتمثل ذلك في مجموعة من المظاهر، كالنضج المبكر وانعكاساته في تطور الدوافع الأولية... الخ. وبين فرويد في سياق آخر أن الإنسان لا يصير إنساناً إلا داخل المجتمع ومن خلاله. ومع ذلك فإن فرويد وفي مسار آخر يحاول أن يدرك المجتمع من خلال الفرد والفرد من خلال المجتمع. وهو عبر ذلك كله يحاول أن يبين الكيفية التي تتجلى فيها الذاتية<sup>(١)</sup> subjectivité كتعبير مشوه عن الواقع، وبين أيضاً الكيفية والدور الذي يلعبه الجانب الاجتماعي للحياة داخل الفرد والتأثير الذي يمارسه عليه في اتجاه تشكيله.

وبين تحليل فرويد للعصابيين وممارسته العلاجية لهم أهمية الدور الذي تلعبه الهوامات الجنسية Fanatismes sexuels في تحديد مسارات السلوك عند العصابيين. واستطاع فرويد عبر تحليله للمنتوجات الثقافية - الاجتماعية أن يدرك جدياً دور وطبيعة النزاعات العدوانية وأهميتها في الحياة النفسية للأفراد. وهنا تجدر الإشارة إلى رأي فرويد في الدوافع العدوانية Pulsions الذي أعلن عنها في كتابه الأساسي حول المجتمع: بؤس الحضارة Aggressives ١٩٣٠. Malais dans la civilisation، وهذا تكمن أغلبية أفكار فرويد التي تلامس علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والتي تدور حول العنف والعدوانية، وسنعمل فيما يلي على بحث بعض من هذه الأفكار<sup>(٢)</sup>.

(١) الذاتية Subjectivité تقابلها لفظة الموضوعية Objectivité: إذا كانت النظرة الموضوعية تعني رؤية الواقع كما هو فإن الذاتية تعني رؤية الواقع كما يبدو للشخص وذلك يعني تدخل العواطف والرغبات والأهواء... الخ.

S. FREUD Malaise dans la civilisation(Das Unbehagen in der Kultur, 1930), trad. (٢)  
M. Bonaparte, P.U.F., 9e éd. 1983, trad. C. et J. Odier, 10e éd. Paris, 1986.

أ - يعد كتاب فرويد الأول وهو "النكتة في علاقتها مع اللاشعور" والذي يقع في إطار علم النفس الاجتماعي بشكل مباشر، وهو كتاب غير معروف لكنه يشكل شاهدا على العبرية الفرويدية<sup>(١)</sup>.

فالنكات في أغلبها تتصل بالنزعات الجنسية. ويوضح فرويد أن المعنى الأصلي لكلمة witz هو الإنسان الذي يحاول إغراء امرأة مذعورة، وبالتالي فإن الوضعية النموذجية للنكتة الفاجرة هي أكثر تعقيداً من سيناريو البداية حيث يتكون المشهد النموذجي لكلمة تسعى هنا إلى إيجاد حلif لها في إطار الاغتصاب الرمزي. ومن هنا فإن الفحش Obscene يمثل سمة عدوانية وهي تعبر حسب فرويد عن مركب سادي للدافع الجنسي.

وفي هذه المناسبة يشير فرويد إلى أن الاندفاعات العدوانية غالباً ما تعبّر، منذ مرحلة الطفولة، عن حصارات وكتب وإكراهات مشابهة لما يحصل بالنسبة للدافع الجنسية. ويبين وبالتالي عن علاقة ترابط بين ثلاثة متغيرات في هذا المستوى: الثقافة Culture والقمع Répression والكف Inhibition أو الصد النفسي. وكلما كان الفرد أكثر ثقافة استطاع أن يسيطر على نفسه بدرجة أكبر، وأن يكون محروماً أكثر من لذة العلوان العفوي. والحلة النفسية تسمح للفرد بالوصول أو بالوصول إلى هذه الملاذات المحكوم عليها من الخارج (السلطات) من الأهل (الكتب والنواهي الأخلاقية والحملية). ويفهم من ذلك أن القرىحة الأدبية لا تتأتى لأشخاص فحسب بل توجد عند كل هؤلاء الذين يعيشون خبرات سارة تتصل بالمبادئ والقيم والقواعد الأخلاقية والدينية.

(١) S. FREUD Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient(Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten, 1905), trad. M. Bonaparte et M. Nathan, rééd. Gallimard, Paris, 1969, nouv. trad. D. Messier. 1988.

هذا ويمكن للنزعات الجنسية أن تتبدىء في إطار الجانب الهزلي والفكاهي لحياة الناس. فالضحك الذي ينجم عن الهزل يعبر عن مشاعر السخرية من الآخر والانتصار عليه. ويلاحظ أن الفكاهة (وهي التعبير الأرقى بالنسبة لأواليات الدفاع) هي أكثر الأشكال ميلاً إلى خفض شأن التأثيرات المؤلمة بالنسبة لهؤلاء الذين يميلون إلى الغضب والنزعة إلى العنف.

ومع ذلك كله لا يمكن إرجاع كل من النكتة والهزل والفكاهة كلياً إلى مجرد نزعات انفعالية عاطفية. وغنى عن البيان أن التعبير الجنسي لا يكون مضحكاً. وهناك بالتأكيد دعابات تظهر في صيغ بريئة ساذجة، وهذا يجب البحث في اتجاهات أخرى إذا أردت حقاً اكتشاف جوهر هذه الظاهرة.

ويوضح فرويد بدقة وجود مسافة روحية كامنة في لعب الكلمات وفي الصيغ الشفوية، ومع ذلك إذا كان صحيحاً أن النفس تجلّى في طريقة توظيف اللغة فإن هناك ظلال اختلاف دائم في تحولات العنف. فكل طرفة أو نكتة، كما يستخلص فرويد، تشكل محاولة جادة لتجاوز عقبات الحصول على متع ممنوعة ولتوفير الجهد الشاقق التي تقضي بها المحظورات والممنوعات.

فالنكتة أحجاج موجه ضد القواعد الأخلاقية والمؤسسات والسلطة القائمة، وهي أيضاً رفض للعقل والأحكام النقدية ولرمزيّة اللغة. وهي تشكّل بالتالي واحدة من الاستعراضات الأكثر قوّة والأكثر اجتماعية لمروود فعل الكائن المهدب المحروم من واحد من أبعاده والمجهد في عملية بحثه عن اللذة.

ب - لقد أبدى فرويد في أعماله المتعاقبة الأسرار التي يمكن أن تقسر لنا كيف يعبر الكائن الإنساني بما يخالف المعايير الأخلاقية والثقافية السائدة. لقد أبدى فرويد في مقالة له حول "الأخلاق الجنسية والأمراض العصبية في

الأزمنة المعاصرة Morale sexuelle et la maladie nerveuse dans le temps moderne معارضته لمتطلبات التحريم الاجتماعي المفرطة وهو في هذا السياق يطور مقولات إيرنافيل (Ehrenafels) الرافضة لوباء وخبث الأخلاق الجنسية التي يقال عنها متحضره.

ويتطور فرويد فيما بعد فكرة قوامها أن الثقافة تقوم على أساس قمع الدوافع وخاصة الدوافع الجنسية ثم الميول والنزعات العدوانية. لقد أدرك فرويد منذ زمن بعيد العلاقة العميقة بين الكبت Refoulement والتقدم القافي ولكنه في هذه المرة يحاول أن يدرس التاسب الممكن بين التضحيات والفوائد. ويتحدد موقف فرويد هنا بالقول إن الأنظمة الاجتماعية لا يمكنها أن تستمر من غير إكراهات ولكن صلابة القوانين في عصره بدأت تأخذ اتجاهات تدميرية إلى حد ما.

ومن المهم هنا وفي هذا السياق العمل على تحقيق التوازن بين الدوافع المعادية للحضارة والتي تؤدي، بحسب فرويد، إلى عملية هدر الطاقة إلى حد أن الفرد لا يستطيع أن ينجز ما يناسب النزعة إلى التعويض وكأن غريزته الجنسية لم تتعرض للكبت البدنة بطريقة فاسدة وذلك على مستوى النتائج. فالممنوعات شكل يأخذ صيغة العنف ويمكن لها في بعض الحالات أن تؤدي إلى أخلاق فظة أسوأ من هذه التي تسعى إلى إلغائها.

يعتقد فرويد أنه لا يمكن لجميع النزعات الدافعية أن ترتفع إلى مستوى التسامي. إذ لا بد من الوصول إلى إشباع مباشر في الحدود الدنيا للميول وذلك تجنباً للاضطرابات الأكثر خطورة والتي يمكن أن تترتب على عملية الكبت هذه. فالأخلاق الفرويدية هي الإسلام المنظم والمحدد للضرورة النفسية، فالطهرية المفرطة قد تكون في نهاية المطاف العدو الحقيقي للإنسانية.

ج - ولا بد من الإشارة في النهاية إلى كتابه "التوتم والتابو" (1913) (Totem et Tabou) وهو الكتاب الذي يكرسه فرويد لدراسة عقدة أوديب وظهور القوانين الأساسية للمجتمع الإنساني (تحديد المحرمات ومنع القتل) وهنا يقدم فرويد تفسيرين لأصل الإنسانية حيث يفترض في التفسير الأول أن الناس وجدوا عن طريق التنازل، وأن المحرمات Tabous كانت صياغاً لممنوعات قديمة مفروضة من قبل الأسلاف الأوائل وأنها متوارثة من جيل إلى جيل عبر الأزمنة التاريخية.

وهو يفترض أن تكون هذه القوانين عائدة إلى إحساس بالذنب مصدره قتل الأب الأول القديم وميل إلى التوحد Identification بشخصه<sup>(١)</sup>. وتكشف هذه الأطروحة عن عملية تحويل لللاحظة الفرويدية من المستوى النفسي إلى المستوى الاجتماعي. لقد استطاع فرويد ومن هذا المنطلق أن يفسر سلوك الخضوع لأحد مرضاه الذي انتقل على نحو مفاجئ من سلوك عنيف إلى سلوك عبودي وذلك إثر وفاة أبيه.

ولا نجد في التفسير الثاني لأصل القوانين الإنسانية أي جديد، حيث يفترض فرويد وجود عقد اجتماعي بين أخوة متنافسين أعيتهم الصراعات المتبادلة. تبين هذه الأطروحة وهي من غير أدنى شك من اكتشافاته الأصلية، أن النزعية إلى المساواة تشتق وجودها من الشك بدرجة أكبر من الحب.

---

(١) التوحد Identification: وهي العملية السيكولوجية التي يصبح فيه الفرد جزءاً من شخصية محبوبة فيشعر بمشاعرها وتغريه محسانها وتتجه مواجهها وتحفيه مخاوفها ومثاله العلاقة بين الطفل والبطل الذي يظهر على شاشة التلفزيون أو اندماج شخصية الفرد في شخصية أخرى تربطه بصلات انفعالية قوية.

وغمي عن البيان أن التفسير الذي يقدمه فرويد لأحوال النشأة الإنسانية الأولى ليس له علاقة عميقة مع حركات التاريخ الحقيقة. وبالتالي فإن كتابه يبدو من خلال وجهة نظر إثنولوجية أو أنتروبولوجية وكأنه نسج تعليمات وهمية مبتكرة. ومع ذلك فإن نظريته تتخطى على جانب كبير من الحقيقة السيكولوجية الخاصة بالتصورات الإنسانية التي تلامس نفوس البشر. ومهما تكون أهمية التحفظات الممكنة بخصوص التأملات الفرويدية حول انتقال الإنسانية من حالها البهيمية إلى حالة التنظيم الإنساني فإن مقولات فرويد في التوتم والتابو تشكل دعوة للتفكير والتأمل في خصوصية العنف الإنساني، الذي لا يمكن له أن يكون بالضرورة حالة مرضية، بل قد يجد أصوله في أساس الحياة الاجتماعية وبتحديد أكبر يمكن القول إن وظيفة التابو Tabous (المحرمات) والطقوس التحريرية هي العمل على حماية الجماعة الإنسانية من الاندفاعات الغريزية الجنسية ومن النزعة الذاتية المفرطة، ومن التزعة إلى العنف.

وفي النهاية فإن قصة القتل الأولى الذي يتصورها فرويد لتفسير ولادة التابو Tabous تتضمن بالتأكيد فكرتين آخريتين أساسيتين على المستوى الأنتروبولوجي Anthropologie.

أ - ارتبط ظهور الثقافة بعملية الانفصال عن الطبيعة.

ب - إن الشخص الذي يقف وراء هذه العملية هو عموماً شخصية أخرى غير الأم (الأب أو العم) وأن هذا الأخير لا يمارس وظيفة ردعية فحسب بل هو بالإضافة إلى ذلك يمارس وظيفة المعرفة، فهو العارف Saveur الذي يدرك الحقيقة ويعلن عن حركة المستقبل.

## المبحث الخامس :

### العدوانية في المرحلة الثانية من تفكير فرويد

« حفنة من القوة تعادل قنطرة من الحقيقة »

أفلاطون

يحقق فرويد في هذه المرحلة نقلة نوعية في اتجاه الكشف عن ملامح العدوانية الإنسانية في مستوى القوى الدافعية المحركة للوجود الإنساني. وهذا يفترض فرويد وجود غريزتين أساسيتين متلاقيتين في الإنسان، تتمثل أولاهما في غريرة "الأيروس" إلهة الحب في الأساطير اليونانية وهي ترمز إلى غرائز "الحياة" بصورة عامة، وتتبلور هذه الغرائز في نسق من القوى الحيوية والدافع الغريزية التي تهدف إلى الحصول إلى اللذة وحفظ النوع وحفظ الذات، وهدفها تحقيق التكامل والانسجام بين عناصر الوجود والمحافظة على بقاء الإنسان بصورة كافية. وتنتجى المجموعة الثانية من الغرائز فيما يفترضه فرويد فيطلق عليها تسمية غرائز الموت " الثناتوس" وهدفها تفكك الارتباطات وهدم الأشياء وتحطيم عناصر الوجود، وتهدف في نهاية الأمر إلى إعادة الكائنات الحية إلى حالتها الأولى وهي الحالة غير العضوية.

ويبين فرويد أن الصراع هو الدينامية التي تحكم العلاقة بين هاتين المجموعتين من غرائز الحياة والموت. ويؤدي وبالتالي التفاعل بين الغريزتين الأساسيةتين في ائتلافهما وتعارضهما إلى ولادة جميع مظاهر الحياة المختلفة.

ويصف فرويد عمل غرائز الموت بأنه فعل داخلي صامت يفطن إليه فقط حينما يتوجه إلى الخارج ويبداً بعملية الهدم والتدمير وذلك من أجل الحفاظ على بقاء الفرد ووحدته. وعندما يبدأ "الإنسان الأعلى" في التكوين يثبت قدر كبير من غريزة العدوان داخل "الإنسان الأعلى نفسه" حيث يعمل بطريقة تؤدي إلى فناء النفس، وهذا هو أحد الأخطار التي تهدى الإنسانية أثناء تقدمها في اتجاه الحضارة<sup>(١)</sup>. وبصورة عامة يرجع فرويد العدوان إلى غريزة الموت في تعارضها مع غريزة الحياة<sup>(٢)</sup>.

## ١ - دوافع الأنماles pulsions du moi

كرس فرويد، في هذا المستوى، جهوده عالية لدراسة العمليات غير الجنسية للحياة النفسية. وهو يشير في الفقرة الأولى من كتابه: المقالات الثلاث إلى دافع التغذية كنموذج أساسى لمفهومه الأساسي حول الدافع الجنسي. ولكن هذه المسألة مع ذلك بقى معلقة خلال عدة سنوات لاحقة<sup>(٣)</sup>.

(١) سigmوند فرويد، معلم التحليل النفسي، ترجمة عثمان نجاتي، ط٥، الجزائر، (ص ٤٩-٥٢).

(٢) توماس بلاس، ستيفاني ميلجرام، ليونارد بيركوتز، ريتشارد جوارنسن: العنف والإنسان، أربع دراسات حول العنف والعدوان، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، شباط ١٩٩٠، ص ١٣.

S. FREUD Trois Essais sur la théorie de la sexualité(Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie, (٣) 1905), trad. B. Reverchon-Jouve, Gallimard, paris, 1962.

في عام 1907 يشير فرويد في محاولتين إلى أهمية المفاهيم غير الجنسية. وهو يميز وذلك على إثر دراسته للنتاج الشعري بين نموذجين من الرغبات: الرغبات "الأيروثيكية" الجنسية والرغبات الطموحة المتسامية التي تسعى إلى تمجيد الشخصية. وهنا يتطرق فرويد إلى بعض الطقوس التي تتجسد في آيات الدفاع وفي الدوافع الأنانية المتمايزة على الدوافع الجنسية.

ويطرح فرويد على بساط البحث في عام 1910 مفهوم دافع الأنا Pulsions du moi ويظهر هذا المفهوم وللمرة الأولى في مقالة له حول الاضطرابات النفسية الوراثية. وهنا يفترض فرويد أن دوافع الأنا تشترك مع الدوافع الجنسية في امتلاكها لبنية عضوية واحدة: الفم، الذراع، العيون...الخ. وبالتالي فإن الضغط الذي يوجد بين النزعين يدمر طاقة هذه الأعضاء: فالعين يمكن أن تفقد قدرتها على الرؤية (عمى سيكولوجي)، وكذلك فإن اليد المذهبة المستخدمة في تنفيذ العادة السرية قد تصاب بالشلل (وخاصة عند المصايب بالهستيريا) فالحياة النفسية هي جسد معاش وعبر تأخذ صورة مكان للنضال أيضاً.

ويعرف فرويد بأنه قد بدأ يشعر بأهمية هذه الدوافع من أجل الحياة وهي دوافع لا تكون دائماً متكافئة إذ قد تدخل في صراع من أجل ابتغاء اللذة الجنسية. ومن بين هذه الدوافع التي تسعى إلى المحافظة على الفرد يشار إلى دوافع الأنا (Pulsions du moi) وبالتالي فإن جميع الدوافع التي تأخذ مكانها في دواخلنا تتوزع بحسب اللغة الشعورية إلى دوافع جوع أو دوافع حب<sup>(١)</sup>.

(١) Regard: S. Freud, «Le moi et le ça», 1923, trad. S. Jankélévitch, Payot, 1927, éd. rev. A. Hesnard, 1963, nouv. trad. A. Bourguignon, P. Cotet, J. Laplanche et al., Payot, Paris, 1981.

وعندما يحاول فرويد البحث في ماهية دوافع الأنما يلاحظ بأنه لا يستطيع أن يبين ذلك في صيغة واضحة. ففي إحدى ملاحظاته عام ١٩٢٠ يعترف بأنها تعني دينامية غير جنسية: فكلمة دافع الأنما تطلق بصورة أولية على جميع النزعات الدافعية المعروفة بالنسبة لنا ولاسيما هذه التي تتمايز عن الدوافع الجنسية في مجال توحّيها لموضوعاتها.

ويبدى البعد الأول لهذه الدينامية في نزعة المحافظة الذاتية - Auto - conservation وهذا يستخدم فرويد غالبا الكلمة الألمانية Selbsterhaltungstrieb كمفهوم رديف لدافع الأنما Pulsion du moi وبالتالي فإن المفهوم Ichtrieb يشير إلى الطاقة الدافعية الموجودة في خدمة الأنما. ويسعى فرويد فيما بعد إلى تحليل ردود الفعل الدافعية ضد عملية الحرمان من تحقيق الإشباعات الجنسية أو عندما تتعرض وظائف المحافظة الذاتية Auto - conservation للخطر. وفي النهاية يستخلص فرويد أن دوافع الأنما تهدف إلى تأكيد الذات والأنما وإلى تصلب إرادة القوة وإلى تعزيز الشخصية.

ثم يبين لاحقاً أن المنظومة السلوكية التي تأخذ طابعاً عدوانياً (الدافع أو تأكيد الأنما) ترتبط مع دوافع الأنما ولكن فرويد لا يلح وبالتالي على خصوصية وأهمية هذه العلاقة. وفي نهاية المطاف يؤكّد فرويد قليلاً على أهمية مفهوم Ichtrieb (طاقة الأنما الدافعية) ولكننا مع ذلك نجد أن هذا المفهوم يأخذ أهمية في المرحلة الثانية من التحليل ويشكل نقطة انطلاق لمنظومة من المفاهيم الأساسية. إذ بناء على هذا المفهوم تتحدد مسائل مثل مسألة الصراع النفسي وهي مسألة مركزية تقع في قلب علاقات الأنما ودوافعها ويطرح وبالتالي مشكلة الأنما ذاتها. وهنا يبيّن الأنما ومنذ هذه اللحظة بوصفه لحظة انفعالية ومصدراً للمخاطر الخاصة بالفرد.

يمكن حقاً إذا لمفهوم "د الواقع الأنماط" أن يثير مشكلات لا يمكننا أن نجد حلولها إلا عندما يتم الانطلاق من مفهوم النرجسية Narcissisme وهو مفهوم مركزي من مفاهيم المرحلة التحليلية الثانية.

## ٢ - الجروح النرجسية<sup>(١)</sup> :les Blessures Narcissiques

يرى فيركو (A.Vergot) بخصوص النرجسية في كتابه "التحليل النفسي وعلم الإنسان" أن مفهوم فرويد للنرجسية يأخذ أهمية خاصة في أعمال فرويد واهتماماته وهي لا تقل في أهميتها عن مستوى الأهمية المركزية التي احتلتها مسألة الأنماط في عام 1914. وإذا كان يتوجب علينا من هذا المقامتناول هذا المفهوم "النرجسية" فإن ذلك يأتي لسبعين أساسين: أولهما أن هذا المفهوم يدخل في عمق العقيدة التحليلية، وثانيهما لأنه يشكل مفهوماً مركزاً لإدراك العدوانية الإنسانية من جهة أخرى.

تأخذ محاولة فرويد النظرية في كتابه الدوافع وأقدار الدوافع Pulsions et destins des pulsions 1915 في سياق عملنا هذا أهمية أولوية وخاصة وذلك لأن فرويد يقدم تحليلاً مشوقاً لطبيعة الحب والبغض في عمله هذا.

أ - يشير فرويد في البداية إلى الكراهيّة Haine بوصفها علاقة موضوعية إذ لا يمكن أن نلحظ في هذا المسار غير الدلالات الأصلية

(١) النرجسية Narcissisme عشق الذات: يقصد بها التحليل النفسي تلك المرحلة التي يتميز بها الفرد إلى اتخاذ الفرد إلى اتخاذ ذاته موضوعاً لعشقه. وهو ميل يشتد في الحالات المرضية وخاصة الأمراض العقلية. في الأسطورة القديمة كان نارسيوس مأخوذاً بجمال صورته التي تتعكس ماء النبع الذي سقط فيه، ثم تحول إلى زهور تحمل اسمه كما تقول الأسطورة القديمة.

للكراهة والتي تشير إلى علاقة مع العالم الخارجي الغريب الذي يتضمن إشارات بالغة التنوع. فالعداوة لا تعني انعداماً للعلاقة بل هي نوع من العلاقة المؤكدة. وتتأكد هذه الفكرة بشكل جيد في نص آخر ظهر في المرحلة نفسها يفيد بأن: المشاعر العدائية تتجانس مع المشاعر الرقيقة في جذرها الانفعالي وذلك هو حال العلاقة بين الخضوع والتحدي فكلامها يعبر في سياق إشارات متضاربة عن التبعية.

ب - يحدد فرويد فيما بعد نقطة جوهرية مفادها: أن مشاعر الكراهة تتدخل مع الأنما Le Moi. فالقول بأن الدافع يجافي موضوعه يصادمنا إلى حد ما ويدفعنا في الوقت نفسه إلى الاعتقاد بأن مفاهيم الحب والقد يجب أن تستخدم لبيان العلاقة القائمة بين الدوافع وموضوعاتها بل يجب أن تستخدم لبيان العلاقة الكلية التي تقوم بين الأنما والأشياء الخارجية.

لذلك أن مشاعر الكراهة لا تتدخل كلياً مع المواقف العدوانية، فالحقد ينطوي على نزعة تدميرية، بينما يشير العداون (Aggression) إلى حالة دفاعية أو تأكيد لأنما في مواجهة الآخر. ومع ذلك فإن غياب التمييز بين الجانبين في نص فرويد يبدو لنا جوهرياً ففي واقع الأمر لا يتوقف الأنما (le moi) الموصوف بعظمته عند حدود الدفاع وتأكيد الذات. حيث يلاحظ في إطار الحياة اليومية أن النزعة العدوانية والكراهة تترابطان دائماً. فعندما يشعر الأنما (le moi) بأنه يتعرض بطريقة ما لمضايقة ما، فإنه يعمل على إزالة وتدمير ما يضايقه، وقليل من الانتصار قد يرضي الأنما المجرور. وهو بذلك ينطوي على نزعة كراهية دائمة. ويصف لنا فرويد هذه الخصوصية في أحد نصوصه المعاصرة: *فقاتون اللاشعور*

Inconscient هو القتل لأنفه الأسباب والتفاصيل "وهو بذلك شبيه إلى حد كبير بنظام دراكون Dracon التشعري في أثينا القديمة، وهو نظام لا يعرف تعذيبا آخر يعاقب عليه المجرمون غير الموت، ومن هنا تبدو منطقية اللاشعور وذلك لأن آية معاناة يعيشها "الأنما" كلي القدرة "هي جريمة أساسية يعاقب عليها بالموت<sup>(١)</sup>.

تضعننا الملاحظة الأخيرة على تماس مع مسألة أصل العنف والحداد الإنسانيين. ويرى في هذا الخصوص أيضا أن "الأنما" يحد ويكره ويسعى إلى تدمير كل الأشياء التي تشكل بالنسبة إليه مصدراً يعيق إشباع الحاجات الجنسية أو إشباع حاجات المحافظة والاستمرار. ومن هنا يمكن التأكيد بأن النماذج الحقيقية لعلاقات الحقد والكراء لا تصدر عن الحياة الجنسية بل عن نصال الأنما من أجل المحافظة على الوجود وتأكيد الذات، فالكراء تصدر عن رفض أصيل يعلنه الأنما النرجسي في مواجهة العالم الخارجي بمختلف مثيراته ومحرضاته. وهنا يعطي الجرح النرجسي أهمية خاصة من أجل الإشارة إلى إصابات الأنما النرجسية والتي يمكن أن تترجم بكلمة الإحباط(Frustration) في اللغة الفرنسية.

وإذا كان فرويد يستخدم هذا المفهوم من أجل الإشارة إلى الرفض والحرمان فإنه لا يوظفه كلياً من أجل الإشارة إلى أصل الحقد والعدوان. وهذا يعني أن فرويد يستخدم عموماً هذه الكلمة للإشارة إلى دافع لم يشبع. والنتائج التي يحلو له أن يشير إليها في هذا الخصوص هي وبحسب الحالة الحصر

(١) جان كلود فيلو، اللاشعور بحث في خفايا النفس الإنسانية، ترجمة علي وطفة، دار معد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٦، ص ٨٧.

<sup>(١)</sup> Névrose والهوا Névrose والكتب Fantasme والعصبية Refoulement والعصبية Angoisse ومن هنا يمكننا القول بأن عدم إشباع أحد الدوافع لا يؤدي بحد ذاته إلى العنف. فالعنف يصدر عن الحالات التي يجرح فيها الأنماط في مواجهته لعقبة مثل الحرمان أو الرفض<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ في هذا السياق أن فرويد عندما يستخدم مفهوم الحرمان لا يحدد كيف يتم تنظيم الرفض. وهو يستفيد من هذه الوضعية غير المحددة ليبين أن للائن جانبًا يتعلق بحالة الإشباع وأن هذا الجانب هو المسؤول الأساسي عن الرفض لرغباته الخاصة. وهذه الملاحظة تجعلنا نعتقد بأنها تناسب ما يسمى بالجرح النرجسي.

يشكل الأفراد الذين يعتقدون بقدرتهم الاستثنائية على خرق المعايير الاجتماعية - من قوانين أو مبادئ - مثالاً لحالة الجرح النرجسي. حيث يكتشف فرويد أن هؤلاء الأشخاص سبق لهم التعرض إلى صدمات وألام كبيرة وهم في حالة ضعف ومن غير إمكانية للدفاع عن النفس ومن هنا فإن هذه الحالة النرجسية تدفع صاحبها إلى محاولة التعويض الشامل على مدى الحياة برمتها. ولذلك يعتقد أن فرويد أن ما تزعمه بعض النساء من

(١) العصاب Névrose: مرض نفسي أو مجموعة نفسية ترافقها حالات جسدية ذات منشأ نفسي كالانفعالات المكبوتة والصدمات والصراع بين الدوافع المتناقضة. ومن أهم مظاهر هذا المرض: المخاوف المرضية والحسق النفسي والأفكار المتسلطية والاندفاعات القهقرية.

(٢) Regard: S. Freud , Inhibition, symptôme et angoisse(Hemmung. Symptom und Angst, 1926), trad. M. Tort, 9e éd. P.U.F., Paris, 1990; Malaise dans la civilisation(Das Unbehagen in der Kultur, 1930), trad. M. Bonaparte, P.U.F., 9e éd. 1983, trad. C. et J. Odier, 10e éd. 1986.

امتلاكهن لامتيازات استثنائية يمكن أن يفهم في ضوء تداعيات الجروح النرجسية المشار إليها. فالنساء المشار إليهن كما يعتقد فرويد عانين خلال طفولتهن من مهانات بالغة وإجحافات خطيرة وهن لا يستطيعن الاعتراف بذلك إلا بصعوبة بالغة. فشروط وجودهن البيولوجية وحالتهن في مجرى المعاناة السابقة وال العلاقات الجنسية السادبة تبدو إلى حد كبير كجروح نرجسية يعبرن عنها أحياناً في صيغة كراهية واضحة وفي أغلب الأحيان في صورة بروادة جنسية ساخطة.

ومن هذا المنطلق بالذات يمكن تفسير المقاومة التي يبدوها المرضى إزاء التحليل النفسي والتي يمكنها أن تكون تعبيراً واضحاً عن ردود فعل. فالإحباط الأول يمكنه أن ينجم ومن غير شك عن فعل الاكتشاف نفسه. وقد وصف فرويد هذه المسألة في عام 1895، إذ يجب على المرء أن يكون مستعداً لمواجهة مقاومة الآخرين في كل مرة يقدم لهم شيئاً يستطيعون هم بأنفسهم اكتشافه أو الحصول عليه. ومن المعروف أن فرويد نفسه قد وقع عدة مرات في فخ نرجسية الاكتشاف وخاصة عندما قدم أفكار فلييس Fliess الخاصة بازدواجية الجنس Bisexualité على أنها أفكاره الخاصة.

وهنا يواجه التحليل النفسي انتقادات حامية جداً حول هذه النقطة وهي انتقادات تدفع إلى المزيد من الجهود لتقديم تفسيرات. فالظاهر العدوانية كما يعتقد فرويد لا تعود أن تكون نتيجة لجروح نرجسية عميقه.

وفي هذا الخصوص يتبيّن أنه عندما لا يستطيع الآنا أن يهيمن وسيطر فإن ذلك يؤدي إلى مخاطر الأحقاد نفسها التي يذكرها كل من غاليليه Galilée ودارون Darwin.

ويشير النص الذي سجله فرويد عام 1915 حول الدوافع أيضا إلى أن السادية - مثل الكراهة والعدوان - تعرقل نشاط الأنما وفعالياته. وبعد أن يميز فرويد بين السادية الأصلية التي تظهر في استعراضات القوة إزاء شخص آخر - أي ما تطلق عليه بكل بساطة عدوان - وبين السادية الحقيقة التي تدفع الآخرين إلى دائرة الألم وذلك من أجل الحصول على اللذة الجنسية. ومن هنا وفي إطار التمييز بين النوعين يبين فرويد أن المتعة لا يمكن أن تتم إلا عندما تتم عملية التوحد مع الشخص المغذب نفسه.

ويبيّن زعيم التحليل النفسي أنه لا يمكن لعلم الفيزيولوجيا الجنسية أن يمكننا من تفسير مناسب للسادية بالمعنى الدقيق للكلمة. وهو إذ يتحدث عن التوحد Identification يبيّن أنها عملية تستعمل على دينامية الأنما وتنطوي على العلاقات الذاتية الداخلية والخارجية. إن تعبير "الدافع السادي" لا يمكن له أن يجعلنا نفتر أن الكائن الإنساني مرهون دائماً بوجود اهتمامات وعلاقات مرتبطة بالعالم الخارجي. فالسلبية المرضية والتي يمكن أن يقال عنها بأنها سلبية غير إنسانية هي نوع من السلوك الذي يفتقر إلى أرومته الإنسانية، وهي سلوك حيواني يختلف حتى عن سلوك الغريزة. ويعني ذلك أن السادية تتصرّع عند الإنسان الذي تهيمن عليه علاقات طفولية وهي علاقات مرتبطة ببنية الأنما I.e moi.

### ٣ - الحرب والموت : La guerre et la mort

شكلت الحرب العالمية الأولى بالنسبة لفرويد الفرصة المناسبة للتأمل في ظواهر الحقد والكراهة وفي الانعكاسات العاطفية والانفعالية لموت الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

ويلخص لنا عمل فرويد الموسوم "اعتبارات راهنة حول الحرب والموت عام 1915<sup>(١)</sup> جوهر تأملاته وتفكيره في هذا الخصوص. وتبعدو أفكاره هنا مكافئة لأفكاره حول العدوان في مقالته عام 1908 التي كرسها لدراسة علاقات الجنس في إطار الروابط الاجتماعية. ويقاد بعلن فرويد في النصين أن الحضارة تقوم على أساس ردع الدوافع وقهرها. ويبين أن القدرة على مجافات الدوافع تختلف من شخص لآخر، وأن مجافاة الدوافع لا يمكن أن تكون كليّة وشاملة وأن هناك جرّعات من الإشباع ضرورية ولا يمكن تخفيتها. والنقطة الأخيرة التي يمكن استنتاجها من خلال المقابلة بين النصين تتعلق بنمط اضطرابات الناجمة عن عدم إشباع الدوافع المعنية. حيث يبين فرويد في هذا الصدد أن المراقبة المبالغ فيها للجنسية تؤدي إلى العصاب Névrose بينما يؤدي كبح العدوانية إلى اضطرابات نفسية أساسية. وفيما يلي نقدم مقطعاً من مقالته يلخص هذين المفهومين: في مجال الجنسية يكون الكبت هنا هو الفعل الأكثر صعوبة على مستوى التحقق، وعندما يتم ذلك فإنه يؤدي إلى اضطرابات عصبية. وعلى خلاف ذلك فإن الإكراه الثقافي يؤدي في الواقع الأمر إلى مظاهر مرضية وينعكس في تشويهات فعلية ويصنع دوافع مكتوبة تؤدي إلى نوع من البلبلة والفووضى النفسية وذلك بهدف الحصول على إشباع في الفرصة المناسبة.

لا يطبع فرويد إلى تقديم تفسير نهائي قطعي للحرب، ولكنه يشير إلى بعض المعالم الأساسية لتفسيير مقتراح. تعود الحرب في أحد أسبابها الأصلية

Regard: S. FREUD «Considérations actuelles sur la guerre et la mort» [1915], in Essais (1) de psychanalyse, Payot, Paris, 1981.

ومن غير شك إلى وجود تباينات واختلافات فردية وإلى تعدد الخصوصيات القومية. لقد وجد فرويد نفسه مأخوذًا بالفكرة التالية وهي: لا يمكن لفكرة الحرب أن تزول طالما يعيش الناس شروط حياة مختلفة تجعل التفوق بين هذه الشعوب يأخذ صيغة العنف، وهنا تأتي الحرب لتصبح قدرًا لا مفر منه. ووفقاً لذلك تأخذ فكرة ظهور العنف والعدوان كنتاج للتباينات الفردية والقومية مسارها في مجال علم النفس.

يرى فرويد في سياق آخر بأن الاختلافات القائمة بين الأفراد تضع الأنما le moi في دوامة التساؤل. ففي حالات التناقر والكراهية التي تظهر بوضوح ضد الغرباء الذين يجرؤون على الاحتكاك معهم تستطيع أن تدرك معنى حب الذات "Amour de soi" ومعنى الترجسية النازعة إلى تأكيد الأنما، وكان ظهور ما يبيان وجودها الخاص يشكل نفيًا لها وإنكارها يهدف إلى تغيير بعض سماتها.

ونحن لا نستطيع في هذا المقام أن ننظر إلى موضوع الاختلاف بوصفه جرحاً ترجسياً دون أن نستدعي إلى الذاكرة التعبير الفرويدي الخاص "ترجسية الاختلافات الصغرى" وفي اللحظة التي يتتسائل فيها عن سر العداوة بين الإسبانيين والبرتغاليين، وبين الإنكلزير والسكوتلانديين لا يستطيع فرويد في مقالته "Narzissmus der Kleinen derenzen" أن يقدم وضوحاً كبيراً. ومن أجل أن ندرك حجة دوامة العنف يجب علينا أن نستند - وكما يعتقد فرويد - إلى العمليات الدافعية. وهي الفكرة التي تضرب جذورها في مقالته حول الحرب، وهي المقالة التي سنعود إليها حالياً.

من أجل تحليل همجية الصراعات العسكرية يستدعي فرويد التفسير الأخير والذي يقع في قلب النزعات الدافعية التي تأخذ صيغة كمونية وذلك

عند جميع الكائنات الإنسانية على الرغم من النهوض الحضاري والثقافي للإنسان. ويمكن الإشارة بالإضافة إلى ذلك إلى أن فرويد رغم مكانته الهمة لم يتحدث بوصفه رجل أخلاق مانويًا (نسبة إلى ماني). يقول في هذا المقام إن الانفعالات الغريزية الفطرية ليست خيرة أو شريرة بذاتها وأن المجتمع بأنظمته هو الذي يحدد قيمة هذه الدوافع.

لترك الآن الحرب جانباً بوصفها ظاهرة نفسية اجتماعية اقتصادية معقدة لا يستطيع عالم النفس في الواقع أن يقدم لها تفسيرات ولننظر الآن في العنف كما يتبدى ويظهر في مضمون الحياة اليومية.

غالباً ما ينفر المتحضرون (Civilise) من ذكر الموت سواءً أكان ذلك يشير إلى موت الأصدقاء أو الأعداء على حد سواءً. ولكنهم على المستوى اللأشعوري يمارسون عملية القتل بسهولة بالغة وبسرور لأنفه الأسباب يقول فرويد: "إننا نتحدّر عن سلسلة لا متناهية من أجيال آباء مارسوا القتل والذين كانوا - كما نحن ربما - يعشّقون الموت في وسط الدماء.

وندرك هنا من غير صعوبة الرغبة في الموت في مكان الأعداء، ولكن كيف يمكن لنا أن نتصور وجود رغبة موت الآباء أو الأصدقاء؟ هنا يلجأ فرويد إلى فكرته المركزية في مجال التحليل النفسي وهو مفهوم التناقض الوجوداني Ambivalence ولا يجد عناً في وصفه باستثناء الحالات القليلة جداً، فعلاقتنا العاطفية الأكثر ودية والأكثر عمقاً تتصل في مضمونها اللأشعوري على عدائية *Hostilité* يمكنها أن توقيط في النفس رغبة الموت اللأشعورية للأحبة.

ويسجل فرويد في هذا السياق ملاحظة مهمة جداً فنحن مدانون بأجمل معانٍ حياتنا العاطفية إلى ردود أفعالنا إزاء الدافع العدواني الذي نشعر به في

عمق حياتنا الداخلية. وبعد عدة سنوات جاء علماء الأخلاق ومنهم لورنر Loranz على سبيل المثال ليؤكدوا هذه الرؤية داخل العلاقات القائمة عند الحيوانات. إذا يلاحظ أن الأكثر عدوانية (الذئاب على سبيل المثال) هي التي تبني العلاقات "الشخصية" الأكثر ديمومة استمرارية.

تشير مقالة فرويد حول الحب والموت في نهاية الأمر إلى فكرة أساسية وهي أن الرجل البدائي يسقط مشاعر العداء على أشكال شيطانية، وهي الصور التي تعذبه فيما بعد. وعلى خلاف ذلك فإن الرجل المتحضر يستبطن دوافعه العدائية ليجد نفسه فيما بعد مشبعاً بالندم الذاتي وتكمّل التدمير.

لقد أشرنا منذ قليل إلى أن فرويد اكتشف مبكراً جداً تأثير العدوانية في مختلف الأضطرابات النفسية مثل: القسر Compulsion الذهان Paranoia الاكتئاب Melancolie<sup>(١)</sup>. ولكنه مع ذلك لم يعترف بأهمية هذه الظاهرة قطعاً إلا من خلال انعكاساتها على الحياة الاجتماعية كردود الأفعال الخاصة بالألم والتزعة إلى التدمير الذاتي. ويبقى علينا في هذا السياق أن نتحدث عن الملاحظات الأخرى المسجلة فيما بعد هذه المرحلة.

في كتابه الحزن والإكتئاب Le deuil et Mélancolie عام 1917 يبين فرويد أن إدراك الاكتئاب مرهون بقدرة الملاحظ الإكلينيكي على التوغل في عمق ما يسمى بعملية الندم أو تأنيب الضمير. فالتأنيب هنا يخص موضوع

---

(١) الاكتئاب Mélancolie: مرض عقلي من أهم أعراضه انخفاض النشاط الحركي والانتواء وانعدام الاهتمام بالعالم الخارجي والأرق والرغبة في الانتحار.

الحب وينتجه ثانويا نحو الأنما بشكل خاص، والمريض هنا يتصرف عندما يخسر موضوع حبه باعتماد الشكل المختلف لعلاقة التوحد (Identification). وهو هنا يهاجم المسؤول عن عذابه، لكن هذا الهجوم يرتد إلى الذات لأن موضوع عدوانيته هو في الوقت نفسه موضوع حبه.

فالملكيوت كائن يتعرض لعذاب شديد أو إخفاق كبير، ويصدر مرضه عن رفضه وعدم قبوله لآلامه وجروحه الترجسية، وتشكل السادية Sadisme جزءاً متكاملاً من هذه الصورة. لقد أشار كارل أبراهام Karl Abraham إلى هذا الجانب وخاصة في دراسته المقارنة بين الاكتتاب والعصاب الوسواسي وهذا ما يؤكده أيضاً وبفسره بالعدوان في المستوى ما قبل التناصلي.

تطوي نظرية فرويد، حول مرض الاكتتاب، على أكثر من مفارقة، فهي وعلى خلاف الرأي السائد تشير إلى ما يظهره الاكتتاب من عدوانية متحفية داخل العلاقات العاطفية للشخص المعنى وذلك بطريقة استعراضية، وهو سلوك يأتي كنتاج لإخفاقاته المتعددة. وهذا ما يدعو مؤسس التحليل النفسي إلى الاعتقاد بأن المريض الذي يوصف بأنانيته ودناعته لا يستطيع إلا أن يكشف عن عمق الطبيعة الإنسانية فيه.

ويتطور فرويد فيما بعد رؤية أخرى تتعارض مع المفهوم العام لنظريته. لقد بینت له دراسته حول الهستيريا Hystérie أن فقدان الذاكرة ليس وظيفة خطية للزمن. فنسیان الموت ليس ببساطة غياباً بسيطاً لعملية التواصل. وإذا كان الذي نجا من حادث يرغب أن يتحرر من نزعة التوحد ويجب عليه أن يقبل حكم الواقع وأن يتخلّى عن موضوعه الضائع وأن يعم

على بناء علاقات جديدة مع العالم. فالعدوان الذي يوجد بشكل منظم في منطق الاضطرابات النفسية يمكنه مع ذلك أن يتجلّى في سلوك مسالم، وهي طريقة للانفصال اللبدي ووسيلة لدفع الإحساس بالذنب وإنقاذ الوجود. وهذا يمكن أن نوظف تعبيراً جديداً لم يظهر إلا مؤخراً عند فرويد: يمكن للعدوان أن يكون تعبيراً عن دافع الحياة.

## المبحث السادس:

### العدوانية في المرحلة الثالثة من تفكير فرويد

« لا يلام الذئب في عدوانه إن يكُن الراعي عدوَ الغنم »

عمر أبو ريشة

شكل إدخال مفهوم دوافع الموت في النظرية الفرويدية عام 1920 المرحلة الثانية من التعديل الذي انعكس على جملة عناصر البنية الفكرية للنظرية. لقد جرى الاعتقاد بأن النظرية الفرويدية وجدت كمالها ونضجها في الكتابات الميتاسيكولوجية لعام 1915. ولكن فرويد قام بإجراء تعديلات أساسية داخل نظامه الفكري بعد عدة سنوات لاحقة. فالعنف الذي يأخذ هيئة الندم وتبيّكِت الضمير أو الشراسة في الحرب يفسر بصعوبة وفقاً للدافع الجنسي أو لد الواقع الأنما. وهذه المسائل تحتاج بالضرورة إلى مزيد من الوضوح، وإلى بناء فرضيات جديدة. وانطلاقاً من ذلك يعلن فرويد عن إدخال وجهة نظر جديدة.

يعلن فرويد في هذه المرحلة عن ضرورة الآيروس (Eros) (غريزة الحب) وأهميتها في تأكيد متطلبات الحياة. وانطلاقاً من ذلك بدأ يفكر في العدم وفي ميل الإنسان اللاشعوري إلى الفناء (Anéantissement). لقد ناضل فرويد

سابقاً من أجل فكريتين أساسيتين هما: الجنس واستقلالية الوعي. وهو الآن أي في هذه المرحلة يناضل من أجل فكرة جديدة ثالثة هي: الموت. وهنا يميز بين موت الآخر الذي هو موت الأداء والغرباء وموت الشخص الثاني الأحبة ثم موت الشخص الأول أي موتنا فناونا الخاص.

لقد حاول فرويد أن يحل المظاهر الخاصة باشتاء الموت ومظاهر التدمير وهو يفترض في إطار تفسيره لهذه الظواهر وجود دينامية سيكولوجية داخلية أطلق عليها دافع الموت (Pulsion de mort).

يأخذ الشكل الأول لد الواقع الموت صورة القسر الذي يفرضه التكرار. لقد واجه فرويد في واقع الأمر الظواهر المتكررة منذ بداية تقصياته ويتبدى هذا الموضوع في مضمون أعماله جميرا والتي بدأت مع مقالته الشهيرة: "الهيستيريون يعانون من الذكريات" (1893) حتى محاولاته الأخيرة في كتابه المهد Oise ١ وهي المحاولات التي يوظفها من أجل تقديم تفسير لتاريخ الإنسانية. وفي عام 1920 وجد فرويد نفسه تحت حصار الافتراضات بوجود نزعة مستقلة تفسر عملية إعادة تكرار التجارب المؤلمة مثل الإخفاق والأحلام المزعجة وبعض الحالات التي لا حدود لها.

ويبدو أن النكوص Régression هو الصيغة الثانية لدافع الموت. وهنا نلاحظ أن هذه الظاهرة ترتبط بسابقتها: توجد نزعة لتكرار التجارب الأولى وأنماط العلاقات التي كانت سائدة خلال مرحلة الطفولة.

لقد بينما أن فرويد في عرضه الأول للد الواقع كان يؤكد أهمية طابعها الداعي. ومع ذلك كله كتب في النص الذي أدخل فيه مفهوم دافع الموت، وهو في هذا السياق يرى أن الأم تصبح النموذج الأمثل لكل العلاقات

العاطفية، وبالتالي فإن البحث عن موضوع الجنس ليس في النهاية سوى البحث عن هذا النموذج. لقد أشار فرويد منذ البداية أن مستقبل هذا الدافع مرهون بأصوله فالإنسان يسعى دائماً، كما يعتقد فرويد، للعودة نحو الخلف (النكوص الوقتي) إلى أن يحلم أو أن يتخيّل وذلك بدلاً من العمل العقلاني (نكس نموذجي) ومن هنا فإنه يحاول عبر فرضية ما بعد مبدأ اللذة (*Au-delà du plaisir*) أن يدرس هذه النزعـة ويفصلها<sup>(١)</sup>.

ويتبدي الوجه الثالث الدافع لموت في الميل إلى التدمير. من المعروف أن بعض المحللين النفسيين الأميركيين يفهمون الموت على أنه نزعة عدوانية. حيث نجد هارتمان Hartman وكريس Kris ولوينشتاين Lowenstein على سبيل المثال يتحدثون دائماً عن التعارض بين الليبido والعدوان. ولكن الفحص المرتبط لأعمال فرويد هنا يبين وجود حالة تبسيطية مبالغ فيها. حيث يؤكد على أهمية مبدأ التكرار والعودة إلى الأصول الأولى وبالتالي فإن مسألة التدمير تأتي في المرتبة الثانية.

فالملاحظة السريرية بدأت تشكل الحجة الدامغة لصالح التعديل الذي أجري في العشرينات، ويظهر ذلك في رفض بعض المرضى للعلاج وفي ردود الفعل العلاجية السلبية (تعظيم الاضطرابات المرضية أثناء المعالجة). لقد كان لغرض المسوشية الأخلاقية هذا بالإضافة إلى المسوشية الجنسية أن يقود فرويد إلى هذه التعديلات. فالمسوشية الجنسية تجد شرحها في إطار الأزدواجية الأولى. لقد أشار فرويد عام 1905 إلى أن العمليات الانفعالية المكتففة

(١) S. Freud., «Au-delà du principe de plaisir» [1920], in *Essais de psychanalyse*, Payot, paris, 1981.

- الألم في هذه المناسبة - تجد صداتها في الحياة الجنسية ويمكن لها أن تتحول إلى مصدر للسعادة.

وقد هدفت النظرية الجديدة إلى تحليل ما يسميه أوكتاف مانوني Octav Mannonie عاز الإحساس بالذنب. ومن أجل إعطاء نظرية دافع الموت أهميتها يستند فرويد إلى بوليموس Polemos وإلى Thanatos فالشخصية الهامة فيما بعد مبدأ اللذة ليست إلى حد ما الشخصية السادية المنحرفة بقدر ما هي الشخصية الكئيبة المقهورة تحت تأثير أنا أعلى moi. وهنا في إطار هذه الصورة الأخيرة تجد الثقافة الخالصة لدافع الموت.

لقد شكل مفهوم الإحساس بالذنب ومن غير شك المسألة الأساسية لأعمال فرويد الأخيرة. وبين فرويد بكل وضوح في نصوصه الأكثر تكاملا حول دافع الموت (في المحاضرة الثانية والثلاثين بأن الشعور بالذنب Culpabilité يطرح نفسه في مركز التحليل وبدقّة أكبر في قلب الاهتمامات العلاجية. وفي هذا الشخص يرى أن الصعوبات التي يجدها الإحساس اللاشعوري بالذنب عند اليوم حقل العمل الذي يضعه المحلل النفسي في أوليات أعماله. ويمكن الإشارة في هذا المقام إلى النزعة التدميرية للأخرين وذلك في المكان الأخير وذلك لأن فرويد بدأ تدريجيا يعترف بأن هذه النزعة تشكل إحدى المكونات الهامة لدافع الموت.

ويلاحظ في مجرى السنوات اللاحقة لظهور كتاب Genseit حدوث مجموعة من التغيرات الهامة حول مفهوم دافع الموت. حيث وجهت الأهمية المتزايدة ومن الناحية المنهجية إلى الظواهر السريرية وذلك بالقياس إلى

الجوانب التأملية. وفيما يخص موضوعات التفكير فإن الأهمية التي أعطيت للجوانب البيولوجية تركت مكانها للجوانب الدقافية. وفي النهاية يلاحظ أن مؤسس التحليل النفسي بدأ يوجه اهتمامه إلى نزعة التدمير بدرجة أكبر من التكرار والنكوص.

يرى فرويد بأنه لا يمكن الإنكار بأن التعارض الوج다اني يؤدي إلى حالة كراهية وعدوان مجهولة الأصول ويمكن أن تعود إلى مصادر أولية. وبينما أن التحول القطعي ظهر في كتاب *Unbehaggen* حيث يدافع فرويد عن وجود دافع عدواني مستقل (1930). وهذا يعتقد بأن النزعة العدوانية تصدر عن بنية فطرية دافعة منتظمة ومستقلة عن الكائن الإنساني. وتشكل هذه العدوانية الأولية الخطير الأساسية ضد الحضارة ضد الأنواع الإنسانية.

ويأخذ كل من دافع التدمير (*Pulsion de détruire*) ثم دافع الموت (*Pulsion du mort*) مكان الصدارة في نصوص فرويد اللاحقة. ويؤكد فرويد في هذا السياق إن المبدئين الأساسيين وهما: الحب (*Amour*) والانفصال (*Discorde*) يشكلان بالاسم والوظيفة نظيرين لدرافعهما الأصلية وهما الآيروس والثاناتوس.

ومع ذلك كله لم يؤد هذا التركيز إلى إهمال مفهوم دافع الموت وذلك في إطار طروحاته عن العنف والعدوان. ولم يذهب فرويد بعيداً عن هذه الطروحات فيما بعد عام 1930؛ فدافع العداون يعد صدوراً عن دافع الموت وتجسيداً له. وهنا لا يمكن بسهولة التمييز بين دافع العداون ودافع الموت. فالعدوان في جملته لا يمكنه أن يؤدي إلى دافع الموت. وبالتالي فإن دافع الموت لا يمكن أن يختزل إلى دافع العداون. ومن أجل العودة إلى استخدام

تعبر لم يستخدمه فرويد إلا في إطار النظرية الدافعية الأولى، وهو أن دافع العداو يبدو إلى حد ما انعكاسا جزئيا لدافع الموت.

ولنا الحق أن نتساءل هنا عن شرعية وإيجابيات النظر إلى أشياء مختلفة بعين واحدة. ويقصد مفهوم تكرار التجارب الطفولية والتزعة إلى مهاجمة الآخرين. ولكن ليس من الأفضل أن ننظر إلى الأشياء من خلال المنهجية السائدة في عالم الأخلاق، والتي تؤكد على أهمية الفصل بدقة بين مركبات الشيء الواحد.

لقد نوقشت مسألة تحديد المفاهيم في مختلف الفروع العلمية، وهي تأخذ أهمية خاصة في مجال التحليل النفسي. لنلاحظ على سبيل المثال أن فرويد عندما يتحدث عن دافع الموت فإنه ينظر إلى هذا المفهوم في شموليته. وهو لا يحاول أن يربط بين مختلف أبعاد الوجود الإنساني فحسب بل يسعى إلى تقصي العملية الثقافية للوجود الإنساني برمتها. وهو من أجل ذلك يبحث عن الحيوان والعمليات الحيوية مثل التمثيل والأيض (Assimilation) وفي الوقت نفسه يسعى إلى تحديد القانونية السائدة في المادة غير العضوية (الوحدة الزوجية، القوة الجاذبة والقوة النابذة).

ويمكن القول في هذا الخصوص أن العلوم تقدم باتجاه التأكيد على أهمية التمييز الدقيق بين المفاهيم دون انقطاع، ومع ذلك فهي تتجه في الوقت نفسه نحو تعميمات جديدة. ويلاحظ في هذا السياق أن فرويد يوجه فعله في إطار الاتجاهين فهو يحاول أن يميز بين المداخل السريرية الجديدة مثل - الوهن العصبي والعصائب والقلق على سبيل المثال - ثم يعمل على الفصل بين مظاهر التعبير المرضي وخاصة اللغة الهستيرية واللغة الوسواسية، ثم

يؤكد في النهاية على أهمية وخصوصية وجهات النظر التي يمكنها أن تنتمي في سياق واحد وأن تجمع بين مختلف الظواهر. وهو من هذا المدخل يطرد بجرأة متناهية أفكاره حول السلوك الهستيري وذلك حينما يرجع مختلف أنماط هذا السلوك إلى مخطط واحد أطلق عليه هستيريا الدفاع (1895). وهو لا يجد صعوبة في إعطاء الجنسية بعدها جديداً وذلك عندما يسلط الضوء على العلاقات الخفية بين السلوك الطفولي والعصاب وبين الانحرافات وبعض الأعمال الفنية الهمامة.

لنقل ابن ابن للتعليم وفته وللتمييز وفته الآخر. وأن هناك أيضاً وقتاً للتفكير ثم هناك لحظة أخرى من أجل رسم المفاهيم الإجرائية واختيار الفرضيات تجريبياً. والمهم هنا هو تجنب الخلط بين مجالات الدراسة أو بين مراحل البحث المختلفة.

ومن أجل الدخول في عمق المسألة يجب أن نشاعل ما الفائد من العمومية التي ينطوي عليها استخدام تعبير "داعم الموت" (Pulsion du mort). نحن نعتقد أن فرويد كان يريد أن يعلمنا بأن الإنسان مسكون بطاقة سلبية نافية. وبذلة أكبر يمكن القول أنه كان يرغب في أن يشد الانتباه إلى وجود علاقات بين مختلف جوانب السلبية الإنسانية مثل الكراهية التكرار والنكوص والميل إلى التدمير الذاتي والعدوانية. وفي هذا الإطار يمثل داعم الموت المفهوم المفصلي لهذه المفاهيم.

فمفهوم غريرة الموت يؤكد على العلاقة بين الثبات والميل إلى التدمير الذاتي. إذ تبين التجربة الإكلينيكية أن العدوانية تتجه إلى تبسيط وتثبيت تجسداتها. وعلى خلاف ذلك يلاحظ أن الثبات النفسي يثير العنف وهناك

جزء كبير من نزعة المنحرف التدميرية كالعصاب، والذهانات النفسية تصدر عن تصلب الوجود النفسي وجموده وذلك يعني الإحساس بالانغلاق وضياع معنى الوجود.

هذا وتنير نظرية فرويد الانتباه أيضاً حول العلاقة بين النكوص ونزعة التدمير الذاتي Auto-destruction Régression فالانهادات الاجتماعية والنفسية تتراافق غالباً بالعنف. ومن جهة أخرى يتبدى العنف غالباً بوصفه الحل الأسهل، فالغضب يتحول في غالب الحالات إلى حالة نكوص.

يشير مفهوم دافع الموت في النهاية إلى العلاقة القائمة بين العداون ونزعة التدمير الذاتي. لقد أشار فرويد دائماً ومنذ زمن طويل إلى علاقات التماش القائمة داخل الذات Soi-même وبين هذه التي تقوم مع العالم الخارجي، وتتصحّح هذه العلاقة القائمة بين الجانبين في السلوك العدوانى على نحو خاص. فالفنان على سبيل المثال بعد شاهدأ على هذه الخصوصية لأنه يتارجح بين نزعتين نزععة القتل ونزعة الانتحار. وفي إطار نظرية الموت يمكن النظر إلى هذه العلاقة بوصفها قانوناً عاماً فالعدوان يمكن أن يكون القناع الذي يخفى نزععة التدمير الذاتية. فالفرد يهاجم الآخر من أجل أن لا يدمر نفسه. وعلى خلاف ذلك قد تمثل نزععة التدمير الذاتية عدوانية تتجه هذه المرة إلى الذات؛ ويلاحظ فرويد في هذاخصوص أنه كلما حاول الفرد بشكل شعوري أو لا شعوري، كبت عدوانيته كلما أدى ذلك إلى ولادة إحساس لديه بالذنب والتصلب. فالفرد من منظور التحليل النفسي منطقة للجدل والصراع الذي قد يكون مدمرة للفرد نفسه. كما هو الحال بالنسبة لآخرين. فالفرد في إطار هذه الصورة كائن ملغم بدوافعه المميتة، وهو

في غالب الأحيان أمام خياراتين: إما أن يكون عنيفاً تجاه الآخر أو أن يكون عنيفاً تجاه ذاته. وهو بذلك أمام نتيجتين: إما أن يصاب بالعصابة Névrose أو بالانحراف Délinquance

إن فكرة العلاقة الوجودية بين الكراهة hostilité والحدق Haine داخل الأنماata والتي ظهرت منذ عام 1915 تبدو وكأنها قد أهملت في الجوانب الأخرى من أعمال فرويد وهذا صحيح لأن فرويد لم يبحث هذه المسألة لفترة طويلة من الزمن وخاصة مسألة العلاقات القائمة بين الأنماata Moi وداعم الموت. ومع ذلك فإن التأملات التي تركها بخصوص هذه العلاقات لا تنقصها الأهمية.

يعتقد فرويد بأن دافع الموت يقوم في داخل النزعة السادية بتحويل الهدف الآيروثيكي لصالحه وذلك مع إشباع النزعة الجنسية بشكل كامل. وهذا يمكننا من إدراك جوهر دافع الموت في علاقته بوضوح مع الآيروس (نزعة الحياة). وإذا كان دافع الموت يظهر من غير غaias جنسية فإنه إشباعه لا يرتبط بلذة نرجسية مرتفعة. ويعزى ذلك إلى أنه يعطي الأنماata مشهد تحقيق رغباته القديمة البالغة القوة. وعندما يتعرض دافع التدمير للصد والكبت فإنه وهو في إطار توجهه نحو موضوعاته يتوجب عليه أن يشبع الرغبات الحيوية للأنماata في مجال السيطرة على الطبيعة. وهنا يميز فرويد بين ثلاثة أشكال للعنف وذلك في إطار العلاقة مع دافع الموت: السعادة السانية، والغضب التدميري، والعنف الظاهر الذي يتبدى في مجال نشاطات الهيمنة وخاصة في مجال العمل. ثم العداون في إطار المعنى النوعي لهذا المفهوم الذي يتوافق مع الحالة الثالثة. ويمكن الملاحظة هنا أن فرويد يتحدث بوضوح عن النرجسية Narcissisme. وتتصبح العلاقة القائمة بين العدوانية والأنماata في المرحلة الثالثة من

العمل الفرويدي وذلك من زاوية التطورات الخاصة بمسألة التوحد Identification  
ويعني ذلك عملية بناء هوية الأنماط.

لقد بين فرويد هنا بأن التوحد هو شكل العلاقة الانفعالية مع الموضوع؛ وهو يقدر في هذا الصدد أن هذه العلاقة هي العلاقة الأكثر أولوية وبدائية. فالتوحد يمكنه أن يساعد على إدراك الآخر وأن يعمل على خفض درجة العدوانية. ويشير علم النفس الاجتماعي في هذا الخصوص وبقوّة إلى أن الأفراد لا يظهرون عدوانيتهم أبداً إزاء هؤلاء الذين يتواجدون معهم مثل زعيم الجماعة وأعضاءها وبالتالي فإن هذه العدوانية تتجه إلى موضوعات خارجية. ويشير فرويد أيضاً في نص آخر إلى أهمية التوحد من أجل تحاول العدوانية، وخاصة فيما يتعلق بخضب مستوى التنافس الأخرى (بين الإخوة). فالعداوة في هذا المستوى من التوحد لا يمكنها أن تجد إشباعاً لها حيث ينشأ في مكانها نوع من التوحد بالنسبة للمنافسين الأوليين. وتشير الملاحظات الجارية حول الجنسية المثلية "الهوموسيكومول" إن اختيار موضوع الحب يأخذ طابعاً عدوانياً. ومع ذلك فإن فرويد يعترف أن التوحد يمكنه أن يأخذ اتجاه المحبة كما يمكنه أن يأخذ رغبة الاستيلاء على الموضوع.

هذا ويمكن للنزعية الأوديبية أن تكون مذلاً جيداً لهذه العملية. فالطفل يتوحد مع والده من الجنس نفسه، وذلك قبل إدراك مرحلة الأزمة الأوديبية. ومثل هذا التوحد لا يشعره وعلى نحو فوري أن الأب منافس له ولكن هذه الحالة تتطور مع ذلك باتجاه المنافسة. فالصبي الذي ينظر إلى أبيه بوصفه منه الأعلى يصل إلى حد الرغبة في الحصول على مكانه وإلغائه. ويمكن لنا أن ننوه إلى العنف الذي يأخذ مداه في هذه الظروف ويتحول إلى مظاهر

مسالمة: ولأن العنف لا يتجه إلى التدمير الذاتي فإنه يقطع حلقة الترابط التوحدي ويساعد على بناء التنوع والفردية.

وعلى الرغم من الأهمية الخاصة التي يعطيها فرويد لد الواقع الموت فإنه لا يركز على أهمية بعد النرجسي لظاهرة العداون، وهنا يمكن القول إن طبيعة الظواهر النفسية تتطلب من المحلل النفسي أن يجري عمليتين هما: تحديد هدف الآنا وتحليل دينامية الدافعية. ونحن نعتقد في هذا الصدد أن فرويد استطاع أن يقلص المسألة التي تفصل بين هذين الجانبين. فهو يؤكد في الآن الواحد ألا وجود لغايات خالصة أو لعمليات صدفية عمياء. فالمحركات الدافعية تحمل وبشكل مسبق دلالة ما ومعنى محدد، بينما وعلى خلاف ذلك فإن المعنى الممكن إعطاؤه للأنا والذي يقدم نفسه للإدراك يبقى تابعاً أو يأتي فيما بعد. والسؤال الذي يبقى هنا هو مشروعية الحديث عن دافع الموت أو دافع العداون، وفيما يلي سنعمل على إعادة النظر في هذه المسألة في ضوء المعطيات المعاصرة للأبحاث العلمية.

### ١ - الآنا الأعلى Le sur-moi

يشكل كل من الإحساس اللاشعوري بالذنب ومناهضه العلاج ظاهرة ينطلق منها فرويد لبناء اثنين من أهم تصوراته هما: دافع الموت ومفهوم الآنا الأعلى Le sur Moi ويبعدونا أن الفكرتين متكاملتين. ففي الواقع الأمر لا يمكن للحياة الدافعية أن تفسر لنا بمفردها أشكال تجلياتها الخاصة، بينما يستطيع المفهوم البسيط للأنا الأعلى أن يبين، كما يعتقد فرويد الطابع السينطاني للمقاومات والعقاب الذاتي (Auto - Punition).

يبين التحليل الفرويدي لمفهوم الأنماط العليا (Sur-moi) بأنه يؤكد العلاقات القائمة بين التأثير الداخلي والعنف. ويمكن تلخيص الطروحات الفرويدية التي تهمنا هنا في ثلاثة مسارات:

أ - يسعى الأنماط العليا (Le Sur-moi) بشكل رئيسي إلى مواجهة العداون.

ب - وهو طاقة تقوم بعملية الهدم الذاتي.

ج - ويمكنه أن يتحول إلى مصدر للسلوك العدواني.

تعود فكرة الصراع بين الوعي والانفعالات إلى العهود القديمة، ومن هنا يستعرض فرويد وجهات نظر جديدة حول هذه المسألة وحول أصلاتها، وهو في صدد ذلك يسجل منذ البداية تلميحات مهمة حول هذه المسألة. ففي رسالة له إلى فلييس Fliess عام 1897 يؤكد فرويد أن الحياة النفسية تخضع لنوع من المراقبة مشابهة لهذه التي توجد في الصحف الرسمية، وهي تمارس دورها في مجال الحياة النفسية، وإن هذه الرقابة مسؤولة عن العينية التي تظهر في الهذيات. وتكمن الفكرة الجوهرية لفرويد هنا في رأي قوامه أن الإنسان يتمثل معايير وفيما تشكل منطلق التأثير الذي يظهر في الحلم والجنون. والفرد الذي يشكل وحدة غير قابلة للتجزئة يتحول فيها منذ اللحظة التي يبدأ فيها التأثير إلى كائن ممزق من الداخل.

ينظر فرويد إلى الجنسية بوصفها المجال المفضل للنكبات النفسية، وبالتالي فإنه يعترف تدريجياً بأهمية النضال ضد الاندفاعات العدائية والحقد والرغبة في التعمير. وبينما النص الواضح حول هذه المسألة ومن غير شك في مقالته حول بؤس في الحضارة *Malaise dans la civilisation* حيث يطور

فرويد هنا الفكرة التي تفيد بأن الآنا وبمساعدة العدواني يتحول ضد نفسه ويرافق وبشدة العدوانية.

ولا يعني ما سبق أن أصلة فرويد كامنة في اكتشافه للحواجز الداخلية المذاهضة للتزعزعات الجنسية وللعدوان، أو في اكتشافه أن هذه الحواجز الداخلية تشكل جانباً من الحياة النفسية فحسب، بل تكمن هذه الأصلة في أهمية أبحاثه الخاصة بالجانب الدينامي للمراقبة أيضاً. فالآنا الأعلى يؤذى عمله وكأنه يقوم بدور يعمل من خلاله الكائن على مراقبة نفسه ويطرد يمكنه فيها أن يفتح نفسه ويصل على تدميرها. فالآنا الأعلى ليس مجرد كابح: بل هو أحياناً عامل من عوامل الهدم الذاتي *Auto destruction*.

ما كنا لنتظر علم نفس الأعماق لنعرف بأن الإنسان ومن أجل أن يجسد إنسانيته يجب عليه أن يوجه العنف إلى ذاته، ومع ذلك فإن تعاليم فرويد تجاوزت هذه الفكرة وحدودها. لقد تحدث فرويد منذ عام 1901 عن طبيعة التكامل في الشخصية وعن التشويه الذاتي والانتحارات اللاوعية. فهو يعلن أن عنف الإنسان الموجه إلى ذاته يمكن أن يتتحول إلى صيغة لا إنسانية، فالآنا الأعلى الموجه الضروري للفرد خلال سنوات حياته يتحمل وبسهولة في هذه الحالة إلى خائن كبير.

لقد استطاع فرويد أن يعيد بناء مشكلته القديمة الخاصة بمقاومة المرضى للجهود العلاجية المبذولة من أجليهم. ففي الصفحات التي يكرسها لدراسة حالات تبعية الآنا، وفي الفصل الأخير من كتاب الآنا والهو *Le Moi et le Ca* يعلن فرويد كما هو الحال في منشوراته الأولى: أنه لا يمكن لنا بسرعة أن نفسر ردود الأفعال السلبية للمرض وذلك بمعنى الإرادة البدنية أو

الكبار، ولأن المرضى يعانون من إحساس بالذنب لم يعترفوا به فهم ضحايا أنا أعلى لا يرحم.

خلال الفترة الأخيرة من عمله، وحتى اللحظة التي كرسها لدراسة المجتمع، يؤكّد فرويد شيئاً فشيئاً على أهمية العدوانية والsadism، التي يظهرها الفرد إزاء نفسه، ومن غير شك فإن الأنماط على المفترض إلى حد ما من قبل الآباء يعزّز قيم العقاب والثواب، ولكن مع ذلك يوجد هناك عند الأفراد عملية بناء ذاتية خاصة بالحجج النقدية فالفرد هو في نهاية الأمر إن لم يكن حذراً يصبح عدواً لنفسه.

يعبر إريكسون Erikson جيداً عن فكرة أساسية في النظرية الفرويدية لأنّه يعتقد بأنّ بقاء الوعي الإنساني في مستوى الطفولي خلال حياة الإنسان يرمّتها بشكل موطن المأساة الإنسانية، فالأنماط على المفترض يمكنها للتمير الذاتي والعنف الموجه إلى الآخر في آن واحد.

ذكرنا منذ قليل، وفي محاور عدّة، أنّ السلوك العدواني انعكاس لصراعات نفسية ولتضاربات بين الواقع، ولا بدّ لنا من المرور على تتمة مهمة وقيمة لفرويد حول هذه الفكرة. وبين فرويد أنّ الفرد لا يتحول إلى العداون من أجل تتمير من يهاجمه أو من يجعله مذنباً فحسب بل يصبح عدوانياً بالتحديد لأنّه يشعر بالذنب. لقد اكتشف فرويد في تحليله لحالة الصغير هانس Hans أن الأطفال يظهرون شراستهم من أجل أن يتعرضوا للعقاب والتخلص من إحساس الذنب الصادر عن توهّماتهم. ويلاحظ فرويد وبالتالي أنّ هناك أفعالاً قاسية ترافق أحياناً عملية انخفاض الضغط النفسي. وهو يفسّر هذه الحالة المدهشة بوصفها طريقة لإعطاء الأفكار الوهمية Fantasmes مضاموناً

موضوعياً ولبناء إحساس عميق بالذنب على المستوى الأدبي، وفي هذا الإطار تلاحظ الشدة التي يمارسها الأنا الأعلى الجائع وفي المكان الذي فلما يننظر توقعه.

وفي هذه المناسبة يمكن الإشارة إلى مساهمة فرويد في مجال علم الجريمة وإلى قدرته العبرية في قلب التصورات الجارية حول السلبية النفسية، وهو من هذه الزاوية يعلن بأن السلوكيات الرقيقة يمكنها أن تخفي هوايات Fantasmes قاتلة، وأن العدوانية الظاهرة هي في بعض الأحيان انعكاس لفضائل الفرد ضد اندفاعاته النفسية الخاصة.

## ٤ - العنف في الثقافة La Culture

لابد لنا في هذا الموقف الاختامي من وقفة نتأمل فيها المفاهيم الفرويدية الخاصة بالعمليات الثقافية. لقد أكد فرويد منذ 1897 حتى أعماله الأخيرة على أهمية الترابط بين مفهومي العوan والثقافة. عملية بناء الثقافة عملية بطيئة وشاقة. فالحضارة civilisation ليست قابلة للتحديد النهائي حيث يتطلب استمرارها بذل جهود دائمة. ويلاحظ في هذاخصوص أن فرويد لا يستخدم دائماً تعبير العمل الثقافي travail culturel ولكن عمله هذا يشير إلى قدرة هذا التعبير على تغطية رؤيته بشكل جيد.

يحاول فرويد في هذا المستوى أن يبرهن أنه على مدى تطور علم الإنسان Phylogenèse وعلم تطور الكائن الإنساني الفرد Ontogenèse كانت العملية الثقافية تستمد طاقتها من الدافع الجنسي ودافع العدوانية. ومع ذلك لا يمكن لهذه الدوافع أن تعبر عن نفسها بطريقة موضوعية؛ فالإنسانية لم

ت تكون في واقع الأمر إلا من خلال عملية تسامي Sublimation خاصة بالدافع الأولية. و يشرح لنا فرويد في كتابه المهد Le moise أن التطور في مجال الحياة الروحية يتطلب إبعاد الدافعية و صدتها. فتطور القيم الثقافية كالأخلاق والدين يتم بطريقة مناهضة للطاقة البدنية. لقد استخدم ورثة فرويد القمع Répression وبالعوا في استخدامه وهو تعبير كان مؤسس التحليل النفسي قد استخدمه أحياناً في هذا السياق.

هذا جانب آخر للشرطية يفرض على الإنسان هذه المشقة التي تسمى "العمل" وذلك من أجل بلوغ الثقافة: فالدافع الجنسية ونزاعات تأكيد الذات والعنف التي تبدو في مجموعها كمحركات للحضارة Moteurs تشكل في الوقت نفسه المخاطر الأساسية التي تهدد المجتمع. ففي القسم الأول من عمله يتحدث فرويد عن التضاد Antagonisme بين الدافع الجنسي والحضارة ولكنه، وفي محصلة لاحقة يعترف بأهمية الصراع بين الاندفاعات العدوانية والمجتمع في بناء الحضارة نفسها.

يشرح في كتابه مستقبل الوهم Avenir d'une Illusion بأن المعاناة والردع الدافعي لا يعنيان تخطي ضرورة العمل الحيوية وإن هناك نزاعات تدميرية غير اجتماعية ومعادية للثقافة عند جميع الناس<sup>(١)</sup>.

وتشكل هذه الفكرة واحداً من المحاور الأساسية لكتابه شقاء الحضارة حيث يرى في هذا الخصوص بأن نزعة العداون التي نستطيع أن نلمس وجودها في أنفسنا وفي الآخرين تشكل العامل الأساسي الذي يشوش

(١) S. FREUD, L'Avenir d'une illusion (Zwangshandlungen und Religionsübungen, 1907; Die Zukunft einer Illusion, 1927), trad. M. Bonaparte, 5e éd., P.U.F., Paris, 1980.

علاقتنا مع المقربين، وهي تؤدي إلى نوع من الهدم في الطاقات الثقافية الممكنة وهي بذلك تشكل تهديداً لأسس المجتمع المتمدن (...). حيث يتوجب على الثقافة أن توظف فعالياتها لكي تضع حدأً لاندفاعات الناس العدوانية وان تعمل على احتواء مظاهر هذه العدوانية بمساعدة التأهيل النفسي الخالص بردود الأفعال.

يدافع فرويد في إطار محاضراته الجديدة عن هذه الفكرة ذاتها وخاصة في الوقت الذي يستعرض فيه نصوروه لدافع الموت؟ وهو يحدد ذلك بدقة عالية عندما يستعرض ملاحظاته حول مفهوم الإحساس بالذنب. فالثقافة تتعمق على حساب الدوافع الجنسية التي تتعرض لكبت المجتمع من جهة والتي تغدو قابلة للتوظيف من أجل أهداف أخرى من جهة أخرى (...). وهذا يعني أن اعتراضنا بالدوافع الجنسية هو شرعي وبنسبـة ذلك بدرجة أكبر على الدوافع الأخرى وخاصة الدوافع العدوانية وهي الدوافع التي تجعل الحياة الاجتماعية شاقة وتهددها بصورة مستمرة. فالإلزام الذي يفرضه المجتمع على الفرد لتحديد عدوانيته يمثل ربما تضحيـة الفرد الأولى والأهم.

ويبدو لنا أن نصـور فرويد للإنسان يأخذ طابعاً مشيناً بالتزـمت والترـاجـدية. فالكائن الإنسـاني يتـأرجـح بين نزعـتين إحداهـما تـشـدـه نحو الآخر والأخرـى تـشـدـه إلى نفسه، وهو في معـانـاته هـذه لا يـجـدـ الحلـولـ المـتوـازـيةـ. فـحبـ الآخـرينـ يـقـودـهـ إلىـ خـيـبةـ الـأـمـلـ الشـدـيـدةـ بـيـنـماـ يـؤـديـ بهـ غـيـابـ هـذـاـ الحـبـ إلىـ التـرـجـيـةـ الـتـيـ تـنـفـعـ إـلـىـ المـرـضـ أوـ إـلـىـ خـيـبةـ الـأـمـلـ أوـ إـلـىـ الـموتـ. ولاـ يـمـكـنـ تـرـكـهـ هـذـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ لـسـيـطـرـةـ نـزـعـاتـ الـعـدـوـانـيـةـ. ولـكـنـ الـمـنـعـ وـالـرـفـضـ الـخـالـصـ لـلـعـنـفـ يـؤـديـ إـلـىـ نـزـعـةـ التـمـيرـ الذـاتـيـ، وـفـيـ هـذـاـ السـيـاقـ يـمـكـنـ القـولـ

إن العصاب Névrose والألم النفسي ليسا مجرد حادثة عابرة بل هما تعبير عن وضعية سيكولوجية محكومة بعواملها الموضوعية.

ومن بين المصادر الأساسية الثلاثة للألم الإنساني: الاضطرابات الفيزيولوجية، وصعوبات الحياة الاجتماعية، والكوارث الطبيعية، وتعد صعوبات الحياة الاجتماعية هي الأكثر إيلاماً. فالثقافة الخاصة بال النوع الإنساني تشكل مصدراً حقيقياً للألام والمعاناة. وهنا يؤكد فرويد على أهمية العوامل الاجتماعية للأمراض النفسية، وهو يتسائل في هذا الصدد إذا كانت الثقافة والتقدم الحضاري يبران شرعيه الألام المعاصرة؟

أ - يمكن السبب الأول للألم الذي يعزى إلى الثقافة في وجود صراعات ساخنة بين الواقع الفردي ومتطلبات الحياة الاجتماعية. ولا يوجه فرويد هنا إصبع الاتهام إلى المعايير السائدة وشدتتها المفرطة - وذلك ما يطلق عليه ماركت القمع المفرط *répression* - بل إلى جوهر الثقافة والصراعات الأساسية الناجمة عنها.

لقد أكدنا منذ قليل على أهمية هذه النقطة، وهذا يمكن القول أيضاً بأن قوانين الحياة الاجتماعية - التي تجسد بجوهرها رموز العنف - لا تستطيع أن تمارس دورها من غير اللجوء إلى العنف. وبالإضافة إلى ذلك فإن السلطة القائمة لا تكفي بمنع إشباع بعض الحاجات الدافعية بل تعمل أيضاً على إحداث تغيرات حقيقة داخل الفرد نفسه.

ب - يؤدي النقد الرئيسي الذي يوجهه فرويد إلى التنظيم الاجتماعي - ولا سيما في داخل المجتمعات التي يقال عنها متحضره - إلى ولادة وتعزيز إحساس الإنسان بالذنب. ففي كتابه التوتم والتابو Totem et Tabou يعلن فرويد

أن النظام الاجتماعي يقوم على الإحساس بالذنب الخاص بجريمة قتل الأب الأول، وفي هذه المرة يعترف بأهمية العقيدة الدينية ولكنه يعترض على الشكل الاستبدادي الذي يأخذه الأباً الأعلى على أثر التعزيزات الاجتماعية.

لقد أعلن فرويد على مدى حياته مبدئين متناقضين ظاهرياً ولكن مع ذلك يمكن النظر إليهما من زاوية التكامل وهما: مبدأ التشفف والزهد Renoncement شرط الوجود الإنساني. ومع ذلك لا يمكن وضع حد نهائياً لعملية إرضاء بعض النزعات الدافعية وخاصة في مجال الحياة الجنسية لأن ذلك يؤدي إلى إحداث اضطرابات نفسية و يؤدي إلى تعزيز العصائب والميل إلى التدمير.

يشير فرويد في أعماله اللاحقة إلى مصدر آخر للألم والقلق وهو الخطر الناجم عن الإنسانية نفسها: دمار الإنسانية الناجم عن الإنسانية نفسها. وهذا يقع المرء في دهشة إزاء القدرة التنبؤية عند فرويد ولا سيما لأن هذه النبوءة سبقت حادثة هيروشيما Hiroshima بخمسة عشر عاماً وهي التي يعبر عنها فرويد بالصيغة التالية: لقد استطاع البشر حالياً أن يتقدموا كثيراً في مجال السيطرة على الطبيعة، ولكن ذلك يشكل مصدراً جديداً للدمار، وما يوسف له أنهم يعرفون ذلك ومن هنا ينجم التوتر الحالي والبؤس والقلق.

يعتقد فرويد أن قدر الإنسان مأساوي وأنه لا يمكن لأي نظام سياسي أن يحقق السعادة الكاملة للجميع. وهو في هذا السياق يصف البديهيات الماركسية بأنها أوهام لا تستند على أساس موضوعية، وهو على سبيل المثال لا يعتقد أن مبدأ إلغاء الملكية الخاصة يمكنه بإيجاد الحلول لمشكلات العنف

بمفرده. ولكن هذا كله يبقى بالنسبة له نوعاً من الإلتوبيا وذلك لأن دافع العداون ونزاعات المحافظة ذات سلطان راسخ الجذور في سلوك البشر. وهنا ينبه فرويد في "مستقبل وهم" إلى أن الحضارة تكون بالغلبة الاجتماعية، وذلك حين تمارس طبقة اجتماعية سطوتها على الطبقات الأخرى وتقمعها، وهنا يمكننا فهم تعاظم عدواية المسحوقين الذين يصنعون الحضارة بکدھم، وهؤلاء المسحوقون أنفسهم يمتلكون أعظم استعداد لتحطيم الحضارة نفسها<sup>(١)</sup>. وبناء على ذلك يرى فرويد "أن المظالم ستستقر وأن العداء الناجم عن الحسد والتآف الآقصادي سيتواصل، مهما كانت ظروف الحضارة وشروطها (...)" ومهما كانت الطريق التي تخترها الحضارة، فإن السمة الهدامة للطبيعة البشرية ستسير وراءها دائماً<sup>(٢)</sup>.

ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، ونذر الحرب العالمية الثانية تحوم في السماء، كتب ألبرت إنشتاين A.Anstien خطاباً مفتوحاً إلى فرويد لا يخلو من سخرية مبطنة، يقول فيه ما الذي يمكن فعله لحماية الجنس البشري من الحرب ولعنتها؟ ثم يتتابع ليسأل فرويد بعد ذلك: هل يمكن لنظرتك في التحليل النفسي أن تقدم شيئاً لمنع أي حرب عالمية في المستقبل وتعمل على

Freud. L'avenir d'une illusion. op.cit.P18. (١)

(٢) أندريه هابنال، ميلوكس مولنار، جيرار دي يوميج، سينكولوجية التحصب، بحث اجتماعية، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار الساقى، ط١، ١٩٩٠، ص٦٨.

(٣) ألبرت إنشتاين - Albert Enstien (١٨٧٩ - ١٩٥٥) مؤسس علم الفيزياء وصاحب النظرية النسبية. كتب خطابه المذكور إلى فرويد في ٣/٧/١٩٣٢ في الوقت الذي تم فيه انتخاب النازي أدولف هتلر بالأكثرية الساحقة زعيماً لألمانيا.

لِيَقْفَ الدَّمَيْرُ وَالْعُنْفُ فِي الْمُجَتَمِعِ الْإِنْسَانِ؟ وَفِي مَعْرِضِ الرَّدِّ قَدْ فَرَوَيْدَ  
إِجَابَتِهِ الْمُشَهُورَةِ الَّتِي تَنْقَطِرُ نَشَاؤِمًا فَائِلًا: «لِلأسف هَذَا مُسْتَحِيلٌ لِأَنِّي رَأَيْتُ  
**جُذُورَ الْحَرْبِ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ»<sup>(١)</sup>.**

وَلَمْ تَذَهَّبْ نَبُوَّةُ فَرَوَيْدَ عَيْنًا. فَلَمْ يَمْضِ عَدَةُ سَنَوَاتٍ حَتَّى اندَّلَعَ الْحَرْبُ  
الْعَالَمِيَّةُ الْثَّانِيَّةُ، وَأَعْلَنَ هُنْلَرُ حَرْبًا ضَرُورِيًّا ضَدَّ الْإِنْسَانِ وَالْإِنسَانِيَّةِ وَكَانَ حَرْبًا  
مَتْوَحِشًا مَجْنُونَةً أَدَتْ إِلَى تَدَمِيرِ مَنْجَزَاتِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَثَرَوَاتِهَا الْهَائلَةِ  
وَانْتَهَتْ إِلَى جِبَالٍ مِنْ جَثَثِ الْبَشَرِ مِنْ شَيْوخٍ وَأَطْفَالٍ وَنِسَاءٍ<sup>(٢)</sup>.

وَمَعَ ذَلِكَ يُمْكِنُ الإِشَارَةُ إِلَى مَخَاطِرِ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي تَؤْكِدُ عَلَى فَطَرِيَّةِ  
الْعُنْفِ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ، وَمِنَ الْخَطَرِ أَيْضًا إِرْجَاعِ مَشَكْلَةِ الْعُنْفِ إِلَى مَجْرِدِ  
عُوَامَّلِ طَبَّعِيَّةٍ أَوْ نَفْسِيَّةٍ خَالِصَةٍ لِأَنَّ ذَلِكَ يَؤْدِي فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَى إِسْقَاطِ  
بعْضِ الاعتِبارَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْإِجْتمَاعِيَّةِ. وَمَمَّا يَكُنُ الْأَمْرُ فَالْعُنْفُ وَالْعُدُوانُ  
يُشكِّلُ مَسَأَلَةً ذاتِ جَوَانِبٍ أَخْلَاقِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ. وَإِنَّهُ لَمَنْ يَؤْكِدُ أَنَّ  
الْأَعْمَالِ الْعِلْمِيَّةِ الْجَارِيَّةِ فِي مَجَالِ الْعُنْفِ وَالْعُدُوانِ لَا تَسْتَطِيعُ، وَلَيْسَ لَهَا، أَنْ  
تَقْدِمْ حَلْوًا لِمَشَكْلَةِ الْحَرْبِ وَالْفَاشِيَّةِ وَالْإِرْهَابِ السِّيَاسِيِّ وَالتَّعَصُّبِ بِمُخْتَلَفِ  
تَجْلِيَّاتِهِ. وَلَكِنَّ يُمْكِنُ لَهَا مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَسْهِمُ فِي اكْتِشافِ الْعَلَاقَاتِ الَّتِي تَسُودُ  
أَبْعَادَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ وَالَّتِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَسْهِمَ بِدُورِهَا فِي إِلَقاءِ الضَّوءِ عَلَى بَعْضِ  
الْإِمْكَانِيَّاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي يُمْكِنُ الْإِنْسَانُ مِنْ السَّيْطَرَةِ عَلَى بَعْضِ جَوَانِبِهَا.

Jacques Van Rillaer, *L'agressivité Humaine*, ED.Pierre Mardaga, Paris, 1988. (١)

(٢) عَلَاءُ الْلَّامِيُّ، خِرَافَةُ الْعُنْفِ الدَّمْوِيِّ فِي ضَوْءِ الْعِلُومِ الْحَدِيثِيَّةِ: رَوْيَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ فِي غَرَانِيَّ  
الْتَّدَمِيرِ وَالْاِنْقَلَامِ وَالْحَرْوَبِ، مَجَلَّةُ الزَّمَانِ الْجَدِيدِ، العَدْدُ ٣٦، دِيَسْمَبَرٌ/كَانُونُ الْأَوَّلِ،  
٢٠٠٢، صَصَ ٧٩-٨١، ٢٠٠٢.

ولنا الحق هنا أن نتساءل إذا كان فرويد يسعى عبر محاولاته هذه، التي يرى فيها أن بؤس الحياة الاجتماعية ينبع من الثقافة ومن الطبيعة الفيزيائية للإنسان، إلى إيجاد الحلول الأساسية لمسائل الحياة السياسية والاجتماعية. وبذلة أكبر ألا يمكن لفطريّة "د الواقع الموت" أن تكون لأيديولوجية رجعية تسعى إلى إخفاء أسرار العنف الكامن داخل البنى الاجتماعية، أو إلى تبرير العنف والعدوان والبؤس الاجتماعي؟

حاول كثيرون من الباحثين التأكيد على أن نظريات فرويد كانت صيغة فكرية للأيديولوجية السائدة في عصره، ولاسيما هذه التي تعبّر عن وضعية المجتمع الصناعي. وأفضل مثال على ذلك ما نجد في السوسيولوجيا المعرفية عند ريسمان David Riesman الذي يدرس الاتجاهات الرئيسية في فكر فرويد ويبين إلى أي حد تبدو جدية فرويد في أعماله وإلى أي حد كان يغلب عليه طابع السخرية والهزل.

ويجر بنا في هذا السياق أن نشير إلى نقد فروم Fromm لفرويد ولاسيما في مسألة التوازن بين مبدأ الواقع ومعايير المجتمع الأبوي المستغل. لقد استطاع فرويد أن يصف بدقة أن هدف التحليل النفسي، هو أن يعلن بأن التربية هي مساعدة الفرد على أداء حياة متوازنة قدر الإمكان ومساعدته على تحقيق التكيف في عمله. إن تأكيده على الضرورة وشكوكه في المحاولات الثورية توحّيان بأنه كان متأثراً بمعنالي مجتمع يسيطر فيه ما يسميه ماركوز Marcuse مبدأ الريع والعائدات Principe de rendement. وفرويد نفسه يقدم إمكانية مثل هذا التفسير وذلك عندما يحاول البرهنة على أن القدر (المصير) Destin هو إسقاط للصورة الذهنية الأبوية، أو أنه تجسيد مادي لأنما الأعلى.

نعتقد أن نظرية فرويد لم تصل إلى كمالها بل هي قابلة لرؤى نقدية كما يقول فرويد نفسه، وهي بنفسها قادرة على إجراء سلسلة من التصفيات الخاصة بطرائقها. فالمفاهيم الفرويدية تقود في نهاية المطاف إلى طرح سؤالات ذات طابع راديكالي. لقد تبنى فرويد منهاجاً يعتمد على التحديد الموضوعي وعلى رفض التلميحات الغامضة في نسق توجه دائم نحو نزعة نقدية.

### خلاصة للرؤية الفرويدية:

يرجع فرويد العدوانية كما وضحاها في مختلف جوانب نظريته إلى غريزة الهمد في تعارضها مع غريزة الحب والحياة<sup>(١)</sup>. ويفترض فرويد كما بينا عبر هذا الكتاب وجود منظومتين متقاطعتين من الغرائز في الإنسان، تتمثل الأولى في غرائز "الأبروس" وهي غرائز "الحياة" وترمز إلى نسق من القوى الحيوية والدوافع الأولية الغريزية التي تهدف إلى تحقيق مبدأ اللذة الجنسية وحفظ النوع وهي تعمل على تحقيق تكامل عناصر الوجود الإنساني وتتألفها من أجل المحافظة على وجودها وبقائها. وتتمثل المنظومة الغريزية الثانية في ما يطلق عليه بـ "غرائز الموت" أو الثنائيوس الذي تأخذ صورة نسق من الفعاليات الساعية إلى عملية التفكك والهدم في التكوينات البنوية للإنسان وذلك في سعيها إلى إعادة الكائنات

(١) توماس بلامس ستاللي ميلجرام، ليونارد بيركوتز، ريتشارد جوارشن: العنف والإنسان، أربع دراسات حول العنف والعدوان، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط١، شباط ١٩٩٠، ص ١٣٦.

الحياة من حالتها العضوية الحية إلى حالة مادية غير عضوية. وتنتمي عمليات هذه الغرائز في فعاليات المقاتلة والعدوانية والجنس.

ويؤدي التفاعل بين منظومتي غرائز الحياة وغرائز الموت والتعارض الوظيفي بينهما إلى نشوء ولادة مختلف مظاهر الحياة الإنسانية. وقد بين فرويد في كثير من أعماله وتصنيفاته الفكرية أن غريزة الموت تأخذ طابعاً داخلياً ففعاليتها تجري في الأعماق وفي حمأة الصمت الداخلي وتصبح هذه النوازع العدوانية صورتها الواقعية عندما تطلق وتحرك وتحاول أن تحقق نفسها بفعل حركة تدفعها إلى خارج دائرة الصمت الداخلي الذي يكتنزها وهي حينما تتجه إلى الخارج، تتحول إلى طاقة هادمة مدمرة للحياة<sup>(١)</sup>. فالعدوان كما يتجلى في رؤية فرويد يأخذ صورة شكل من أشكال الطاقة المدفونة في الأعماق وهو أشبه بسائل مضغوط في حاجة لأن يفرغ أو يحرر<sup>(٢)</sup>.

في رسالته إلى ماري بونابرت Marie Bonaparts في مغرب حياته يعلن فرويد أن موضوع العدوانية لم يحظ بالأهمية الكاملة، وأن هذا الإهمال يتبدى في الكتابات السابقة التي عالجت المسألة بطريقة فجة وسطحية وهي كتابات لا تستحق الانتباه.

لقد حاول مؤسس التحليل النفسي أن يضع إطاراً تفسيرياً قادراً على تحجيم أوهام العقل وإسقاط أقنعة الرغبة. وحاول في هذا السياق أن يرسم

(١) انظر : سigmوند فرويد، معلم التحليل النفسي، ترجمة عثمان نجاتي، ط ٥ ، الجزائر، (ص ٤٩-٥٢).

(٢) توماس بلس، العنف والإنسان، أربع دراسات حول العنف والعدوان، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، بيروت ، دار الطليعة لطباعة ونشر ، ط ١، شباط ١٩٩٠، ص ٢٢.

خداع الآيروس Erose ومع ذلك فإن منهجه في التفسير يسمح أيضاً بالاعتراف بعمل الثناتوس Thanatos الذي يجري بصمت.

لقد بيّنت محاولاته كيف يمكن للرغبة أن تسيطر على الذكاء، وهو في هذا الاتجاه يسلط الضوء على الأشكال المعقّدة لبنيّة العنف، ويسعى عبر هذه المحاولات إلى رسم حدود العلاقة التي تربط الفرد بالجماعة. ومن هذا المنطلق ذُلن فرويد يأخذ مكانه بين المفكرين الذين عملوا على تفسير حوادث القرن العشرين مثل ماركس Marx ونيتشه Nietzsche وهو كسابقيه (ماركس ونيتشه) أبدع طريقة جديدة في التحليل حظيت بإعجاب الجميع واحترامهم. حيث قدر له أن يتناول الحقائق الجوهرية لعصره وبين أن الافتراضات القائمة والتفسيرات الجارية مجرد أوهام أو أكاذيب.

لقد عمل فرويد على إسقاط قناع العدوانية والعنف وبعث منهجاً أصيلاً في كشف دينامية الفعل السيكولوجي وألياته على نحو كلي واستطاع عبر ذلك كلّه أن يقدم تصوراً علمياً لهذه الظاهرة فكان بذلك واحداً من أبرز انتصارات التفسير العلمي للسلوك الإنساني.

ولم يتوقف فرويد عند حدود الكشف عن شيفرة العنف ورموزه. بل تعدت جهوده حدود الكشف إلى مقامات التفسير. لقد قدر فرويد عالياً رأي أنطول فرانس Anatole France الذي أصاب كبد الحقيقة عندما كتب يقول "إنه من الصعب جداً لرجل يمتلك السلطة أن يمتنع عن الإفراط في ممارستها".

لقد علمنا مؤسس التحليل النفسي بأنه يجب أن نسمع الكلمات من خلال الحروف، وأن الإشارة البسيطة جداً تتضوّي على دلالة تتكلم. فالتحليل هو من

حيث المبدأ استسلام كلي لسماع ما ي قوله المريض وإدراك للدلالة وسعى إلى تحرير اتجاهات جديدة للمعاني من أجل إيصال المريض إلى حقيقته الخاصة.

لقد دشن فرويد نموذجاً علاجياً يبين فيه بأنه لا يجب على المعلم النفسي أن يردد على الحديث العنف بالعنف بل الاستماع والاحترام والمسالمة، وبالتالي فإن عالم النفس - الذي يهتمي بإضاءات هذا النموذج - يدرك بأن العدوانية والعنف هما فخان لا يجب على المرء أن يستجيب إزاءهما ردود فعل اندفعاعية أولية سانحة. إذ يجب عليه أن يستمع دون حكم الأفكار المسبقة، ودون افعال ويتوجب عليه إزاء العنف الذي يبديه المريض أن يتخلى عن القول المنظم وعن قوة التدخل. فهو يشاهد لعبة العنف ولكنه يدرك جيداً أن العنف مجرد إشارة وأن الخوف والعدوان يتلاشيان عندما يجد المريض كلماته المناسبة للتعبير والاستماع.

لقد حاولنا أن نحلل المعطيات الأساسية لفرويد حول العدوانية، ولم نشا أن ننهك أنفسنا في عرض نصوص أدبية أو نقدية. وعندما يزيد الباحث حقاً أن يعرفحقيقة التصورات الفرويدية عليه أن يلجأ إلى أعمال فرويد الأساسية في هذا الخصوص، وسيدرك بعمق وأصلالة هذه المعاذنة العلمية التي أحاطت فرويد من أجل بناء رؤيته العلمية إلى مسألة العنف والعدوان.

لقد شاهدنا واستمعنا كثيراً قبل أن نأخذ موقفاً من نظرية فرويد في العدوانية. لقد جاء موقفنا من فرويد في نظريته عن العنف انسانياً بمعنى أننا وضعنا جانباً أفكارنا وتصوراتنا الخاصة وذلك من أجل فهم وتقييم وجهة نظر الآخر إيجابياً وذلك من غير أن نشاركه الرأي. ولسنا هنا في أدننا من يردد حماس ما قاله المعلم، وكان أقواله و تعاليمه نهائية وإلى الأبد. فنصوص

فرويد ليست مقدسة ولا تمتلك بذاتها المعرفة المطلقة. فنحن نعلم اليوم أن فرويد الذي قضى حياته برمتها وهو يتساءل يدعونا اليوم وعلى خلاف ما ذهب إليه أنصاره المتحمسون إلى تجاوز علمي لأفكاره وتصوراته ثم إعادة تشكيلها بذاتها.

ومهما يكن الأمر فإن نظرية فرويد تتميز بالخصوصية العلمية ولكننا مع ذلك مفتتون بضرورة طرح نساؤلاتنا حول الاكتشافات والنتائج على مدار الزمن وفي ظل التطورات الكبرى التي يشهدها علم النفس وغيره من العلوم. فلا يمكن لجميع عناصر نظرية ما أن تكون قد برهنت واحتبرت على نحو كلي، وندرك أيضاً أن خصوصية نظرية ما مرهونة في نهاية الأمر بمدى رقيها التجريدي، ومدى تماسكها المنطقي، ومدى امتلاكها للمفاهيم المعقولة والمفاهيم القابلة لللاحظة، ومن غير ذلك فإن النظرية تحول إلى ميثولوجيا أسطورية أو إلى نوع من الخطابة البلاغية.

## **المبحث السابع:**

### **الأسس الفيزيولوجية والنفسية للعنف والعدوانية:**

**هل يمكن للعنف الإنساني أن يفسر على نحو فيزيولوجي؟**

· من كثرة ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه ·

حكمة عربية

لابد لنا من الاعتراف، مهما يكن الموقف المتخذ من مسألة الغريزة، بأن بعض العمليات الفيزيولوجية قادرة على تفسير السلوك العدوانى، وبإمكانها في الوقت نفسه أن تعززه. ولا يستطيع هنا أن يستعرض جميع المعطيات الفيزيولوجية التي تتواجد بها مضمون الكتب الضخمة، فالآدبيات العلمية التي تتناول مسألة العنف باللغة الاتساع والشمول، وهي تشمل فيضاً هائلاً من النتائج الجراحية التي تأخذ اليوم صورة موزاييكية "تفصيلى بالتدخل والتشابك.

### **تأثير الهرمونات الجنسية:**

تتميز النزعة الجنسية عن النزعة العدوانية وتباين، ومع ذلك فهناك علاقات ترابط جوهرية بين الجانبين. إذ يشكل الصراع واحداً من المظاهر

الأولى لمواسم السفاد والحب عند بعض الحيوانات، ومن هذا المنطلق فإن تشيرجن (١٩٥٣) يعتقد بأن أكثرية الصراعات تأتي كنتاج لطبيعة قوامها إعادة الإنتاج. فالنضال والصراع يكون دائماً من أجل الحصول على شريك جنسي، أو من أجل المكان والأرض، أو من أجل السيطرة، ومن أجل حماية الصغار.

وفي المستوى الإنساني، يلاحظ، على سبيل المثال، أن المحاربين لا يغبون أبداً فرص الإثبات الجنسي؛ وهذا الأمر يحذونا إلى أن نبحث في تأثير الهرمونات الجنسية في درجة العداونية عند الإنسان على نحو خاص.

لقد بينت التجارب العلمية التي أجريت على الدجاج أن الدجاج يصبح عداونياً بدرجة عالية عندما يحقن بهرمونات التيستوستيرون Testosteron (هرمون جنسي تفرزه الخصية)، ولوحظ أيضاً أن هذا الهرمون الجنسي يصعب من درجة ميل الدجاج إلى الصراع والنقر والمقاتلة. وعلى خلاف ذلك تبين التجربة أيضاً أن إعطاء الطيور هرمونات الأوستروجين Ostrogens يجعلها أكثر انطوانية ويخفضن لديها من درجة الميل إلى العنف.

وما تجدر الإشارة إليه بأهمية خاصة أن أنثى الهرمون الجنسي ليس بسيطاً أو أنها عابراً كما يبدو للوهلة الأولى، ففي التجارب السابقة تبين أن طيور الدجاج التي ارتفعت لديها درجة العداونية تحت تأثير الحقن الهرمونية الجنسية يحتفظ بمستوى الجديد من العداونية وذلك بعد التوقف عن إعطائه الحقن الهرمونية. ومع ذلك يلاحظ، بصورة عامة، أن ردود الأفعال تتباين بتباين الأنواع والهرمونات وأوقات الحقن، والتدرجات السابقة والسباق العام الفيزيائي والاجتماعي.

لقد أسفرت هذه التجارب عن نتيجة هامة قوامها أن تأثير الهرمونات يكون فعالاً على نحو كبير عندما تتعرض لها الحيوانات في صغرها، أي في بداية انطلاقها الحيوية. لقد بحثت تجربة سيمور لوفين Seymour Levine وتجارب أخرى، أن الفئران التي حققت بجرعات كبيرة من التوسستيرون تمثل إلى إظهار سلوك عدواني بدرجة أكبر كلما كانت أصغر، وبينت هذه التجارب أيضاً أن ذكور الفئران التي تعرضت لعملية الخصاء أثناء الولادة تظهر أثناء المعارك سلوكاً يشبه السلوك الأنثوي إلى حد كبير، وبالتالي فإن الميل إلى القتال لا ينمو عند هذه الذكور المخصبة حتى ولو حققت بالهرمونات المذكورة بعد مرحلة النضج. ويمكن الإشارة في هذا الصدد أن الخصاء المتأخر (أثناء القطام على سبيل المثال) ليس له هذا التأثير الكبير في مستوى العدوانية. فهناك مرحلة حرجية وهامة للتأثير في السلوك عند الحيوانات.

وتتسحب الملاحظات السابقة على الثدييات. لقد أجريت مثل هذه التجارب على القردة الحوامل، حيث أعطيت جرعتاً هرمونية مذكورة عالية أثناء الحمل وفيما بعد مرحلة الرضاع، وقد لوحظ على أثر ذلك أن المواليد الإناث فيما بعد يظهرن سلوكاً ذكورياً، وأنها تمارس العاباً أكثر عنفاً بالقياس إلى الإناث الطبيعيات اللواتي لم تتعرض أمهاتهن لجرعات هرمونية مذكورة أثناء الحمل. والجدير بالذكر أن هذا السلوك المذكور لا يستمر حتى نهاية الدورة الحياتية لدى الإناث اللواتي خضعن للتجربة المعنية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل تتسحب هذه النتائج على الحياة الإنسانية؟ تبين الملاحظات أن الفتيات اللواتي تعرضن لتأثير هرمونات ذكورية أثناء العلاج يظهرن سلوكاً ذات مواصفات ذكورية. وبناء

هذه التغيرات ترتبط بالوسط الاجتماعي الذي يحيط بالفرد ولا سيما بعض المتغيرات مثل متغير الجنس (كأن يكون الفرد امرأة أو رجلاً)، ومتغير درجة المسؤوليات اليومية، وهذا يعني أنه لا يوجد علاقات سببية جامدة بل تأثيرات دورية بين العوامل النفسية والفيزيولوجية.

### العدوانية وهرمون الأدرونالين Adrenaline

تبين التجارب وجود علاقة جوهرية بين مستوى العدوانية وبعض الهرمونات الأخرى الهامة، وهذا يجب أن نشير وبصورة أساسية إلى هرمون الأدرونالين (وهو هرمون تفرزه الغدة الكظرية) بوصفه واحداً من الهرمونات التي توجد في أصل العداون والعنف، لقد بين كانون W.B Cannon بأن إطلاق هذا الهرمون في الدم، وهي عملية تتم بتوسيط الهيبوثلاثموم المخ، يؤدي إلى يقظة فيزيولوجية، ويهدد لنشاط سلوكي عنيف، ومع ذلك يقرر كانون بأن الغضب يمكن أن يحدث حتى في غياب التحولات العضوية (على سبيل المثال عند القحط التي تعرّضت لعملية استئصال العصب الودي السمبناوي) وأن حقن الأدرونالين لا يستحر بالضرورة هجوماً عند جميع الحيوانات.

وبين الأبحاث التجريبية التي أجرتها بياش Beach (1948) غياب العلاقة السببية الوحيدة الاتجاه بين الإفرازات الهرمونية الداخلية والسلوك. وبياش بيash أن هرموناً ما يمكنه أن يؤثر في اتجاهات متعددة، ويؤكد في هذا السياق أن أي رد فعل سلوكي لا يرتبط أبداً بإفراز هرموني واحد.

ويعترف اليوم عدد من الباحثين بأهمية العوامل الفيزيولوجية في السلوك، وفي هذا السياق يعلن كل من شاشتير Schachter ولاتاني Latane (1964) بأن

ووضعيات الكائنات التي تحقق بالأدروناлиين تختلف وفقاً للبيئة العام لوجودها. فالأفراد يصبحون مرحين في الأوساط المفرحة بينما يصبحون عدوانيين عندما يكون الوسط الخارجي مشحوناً وقائماً. وفي إطار رؤية شمولية للأعمال التي كرست لدراسة الغدد الكظرية يستخلص كلوبير (Klopper 1964) غياب علاقات الترابط البسيطة بين هرمون وأخر وبين السلوك العدواني، ويؤكد تفسيره هذا على أهمية الدور الخاص بشخصية الأفراد.

### تأثير المراكز العصبية:

لا يمكن لنا في الواقع الأمر أن نناقش تأثير الغدد الصماء الداخلية دون الحديث عن البنى العصبية، وذلك لأن إثارة هذه البنى يؤدي إلى إفرازات هرمونية في الوقت نفسه تؤثر فيه هذه الهرمونات بدورها على نشاط المراكز العصبية، وذلك يشكل ما يمكنه أن يطلق عليه الدورة الهرمونية Neuro hormonal.

تبين التجارب الجارية في هذا الميدان أن تخريب بعض التشكيلات الدماغية يؤدي إلى ظهور حالات من الغضب والسلوك العدواني، فعندما أجريت عمليات جراحية في الفص الجبهي عند القرود التي توجد في جماعات لوحظ أن العلاقات الاجتماعية للجماعة تتأثر وتتعرض للانحلال، فالقرود التي توجد في الدرك الأسفل من نظام الجماعة لم تعد تتتجنب القرود صاحبة التغريب وذلك بعد أن أجريت لها عمليات جراحية في الفص الجبهي للدماغ، بل وعلى خلاف ذلك بدأت تهاجم الحيوانات الأعلى وبصورة موازية، ويشير ذلك إلى أن بنية الجماعة تخسر استقرارها الأول تحت تأثير هذه العمليات(٤).

فالقطة التي تعرضت لعملية استئصال دماغي وُجِّهَت جزءاً من الhippocalamus Hypothalamus تظهر سلوكاً انتقامياً يوازي إلى حد كبير الغيظ الشديد. وقد استطاع عالم الأعصاب الشهير هيس W.R.Hess عام (١٩٢٨) أن يحصل على نتائج مشابهة على طريق التحريض الكهربائي لبعض مناطق الhippocalamus عند القطط السلمية.

إنه لمن الصعب، والحق يقال، أن نحدد ما إذا كان هذا السلوك أو ذاك ناتجاً لحوادث مخبرية مصطنعة، أو أنه نتاج لتأثير واقع حقيقي خاص. ويضاف إلى ذلك، أنه لمن الصعب أن نميز بين الخوف والغضب في سياق حالات تجريبية، وذلك لأن هذين الانفعالين يتعالىان معاً وبدرجة متدنية من التمايز فيما يخص بالمثيرات التي تجعل سلوك الكائن يتأرجح بين الهروب المخيف إلى الهجوم العنيف؛ ومع ذلك يؤكد الباحثون أن بعض الاختلافات البسيطة في أماكن أو في درجة التحريض الكهربائي للدماغ يتغير ردود أفعال مختلفة، وأن المستقبل سيشهد تقدماً جديداً في مستوى اكتشاف علاقات الترابط بين المناطق الدماغية وردود الأفعال السلوكية.

وتسمح التقنيات الحديثة اليوم في مجال التحريض الكهربائي للدماغ عن بعد لعلماء الفيزيولوجيا أن يتحولوا إلى علماء نفس فيزيولوجيين، ففي الواقع الأمر لم يعد ضرورياً عزل الحيوان عن سياق حياته من أجل إجراء التجربة إذ يمكن إجراء التجربة على بنية العصبية بطريقة طبيعية واجتماعية.

وعلى الرغم من كل هذا التقدم، فإن الأبحاث لم تستطع، في الواقع الأمر، أن تفسر السلوك العدواني على نحو كلي وذلك بالاستناد إلى الغريطة

الطوبوغرافية للدماغ، فهناك فروق تظهر بين كائن وآخر في معطيات التجربة الواحدة، ومن جهة أخرى إذ كانت هذه التجارب تشير إلى وجود قابلية لرد فعل عدوانية عند الحيوانات، فإنها لم تستطع أن تبرهن أن العنف يمكنه أن يظهر عفويًا في سياق العضوية نفسها.

وفي النهاية، وهذا هام جدا، يُعرف أفضل الاختصاصين في هذا المجال (J.P. Flynn & J.Delgado & P.Karli) بوجود تضارب في معطيات التجارب السابقة ووجود تداخل في شروط الوسط المحيط بهذه التجارب.

إن تحرير الهيبوثلاموس، على سبيل المثال، يتبرأ حالات متعددة رهينة في مستوياتها بالعوامل والمتغيرات الأخرى، وفي هذا الخصوص كتب كارلي Karli يقول: "إن تحرير الهيبوثلاموس لا يؤدي وبصورة أوتوماتيكية أو نموذجية إلى إثارة سلوك محدد، وفي الواقع لا يشكل حضور الطعام أو الشريك الجنسي شرطاً ضرورياً لإحداث هذا السلوك أو ذلك تجريبياً فحسب، ولكنه احتمال ظهور هذا السلوك مرهون إلى حد كبير ببعض السمات الخاصة بالمتغيرات الغائبة"، ولهذا فإن هذا الباحث يعطي أهمية خاصة إلى نظام الشيفرة الدماغي وهو النظام الذي يتدخل في عملية تشكيل مغزى المثير الخارجي أو الداخلي.

وتأخذ أعمال دولجادو Delgado الاتجاه نفسه، ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن هذا العالم الشهير وهو من جامعة يال Yale قد ساهم في تحديد المناطق الدماغية المسئولة عن انطلاق الغضب أو كبه، لقد لاحظ هذا العالم، على سبيل المثال، أن العدوانية يمكن أن تختفي وقتياً عند القرود الآسيوية، وذلك عندما يتم معالجة الجزء الداخلي للنواة الدماغية بالتحريض

وخلال هذه الفترة من التحريض، يمكن ملامسة وجه هذه الفرود دون آية خطورة، علماً بأنها عدوانية جداً في الأحوال الطبيعية.

ومع ذلك فإن دولكادو Dolgado يؤكد دائمًا على دور التعليم والسباق الاجتماعي، فالقطط التي تعرّضت لعملية تحريض هيبيوثالموسيك جانبية لجعلها عدوانية تختار نقيضها، فالتحريض الدماغي يحدد الحالة الانفعالية العدوانية ولكن الأداء السلوكي يبقى المحور الأساسي للسمات الفردية عند الحيوان المحرض وخاصة قدرته على الاكتساب وخبراته السابقة، وينسحب ذلك على الفرود، فمحلول S.E.C يمكنه إثارة الحيوان، ولكن الشكل النهائي لعدوانيته مرهونة بعلاقاته الاجتماعية.

فالذكر يهاجم ذكرًا آخر يتجاهله ولكنه مع ذلك يبتعد ما أمكن عن مهاجمة أنثاه، ويستخلص دولكادو قائلًا: يبدو أن التحريض الدماغي يؤدي إلى شويفش انفعالي ويؤدي إلى إحداث تغيرات في تفسير الوسط (... ) فالتحريض الكهربائي لا يحدد هدف النزعة العدوانية، وهو وبالتالي لا يوجه مراحل السلوك العدواني وكل منها يرتبط بتاريخ الكائن المحرض دماغياً، كما يرتبط بقدراته على التكيف المباشر مع التغيرات الظرفية المحيطة به.

ولكن كيف تبدأ هذه التجربة عند الإنسان؟ فالسيمونات S.E.C يمكنها أن تؤدي إلى ارتقاض أو انخفاض الألم والقلق والغضب عند الإنسان، ومن أجل اختبار هذه المسألة يتم أحياناً اللجوء إلى إدخال سلك كهربائي داخل المخ وذلك لمعالجة الاختلالات الصرعية العنيفة، وفي إطار هذه التجارب أحضر دولكادو بعض مرضى، الذين يعانون من اضطرابات عاطفية، لتأثير أجهزة تحريض محمولة، واستخلص في النهاية أن الواحد من هؤلاء المرضى

يستطيع أن يخوض اندفاعاته العدوانية بفضل عملية التحرير الذاتي المتكرر للنواة اللوزية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو بأي معيار يمكن للأحساس المستثار عن طريق التحرير الكهربائي أن تتكامل مع الشخصية؟ ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال سنكتفي بالإشارة إلى آراء دولكادو حيث يقول: "تشكل اللغة والثقافة جانباً من العناصر الأساسية في بنية الشخصية، وبالتالي فإن إرسال الشحنة الكهربائية للدماغ يمكنها استثارة بعض الذكريات وإيقاظ العواطف وتنشيط النزعة إلى المحدثة، ولكن الكائنات المعرضة تسلك دائماً بوعي من الخلفيات المرجعية لتجاربهم".

فالعلاقات الدماغية تؤدي إلى تغير في ردود الفعل والكتافة العاطفية عند الإنسان أيضاً، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى أهمية نتائج حوادث الجانبية في الطريق وذلك بشكل صيغة حديثة لعملية الهدم الذاتي. ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى بعض النماذج الخاصة بمحالات الصراع أو داء النقطة.

لقد وصفت، ومنذ زمن طويل، المظاهر العدوانية عند المصابين بالصراع (فرط الانفعالية النزفية، الفطاحمة وإنفجارات الغضب) وفي هذا الخصوص يلاحظ أن نسبة عالية من الجائعين يعانون من فوضى كهربائية دماغية.

وفي هذا السياق يشير تاتيركا Taterka وكاتر Zalet على سبيل المثال إلى أن 73% من الأطفال الذين يعانون من خلل سلوكي يعانون من فوضى دماغية كهربائية، ومع ذلك فإن هذين الباحثين لا يستطيعان مع ذلك تحديد العلاقات القائمة بين التشوش الكهربائي الدماغي ومختلف الأضطرابات النفسية مثل

(السلبية المطلقة، العدوانية، فرط النشاط) ويضاف إلى ذلك، هنا كما في مكان آخر، أنه يجب البحث عن دلالة السببية واتجاهاتها، فهل يؤدي الاضطراب العضوي إلى جعل الكائن أكثر إثارة أم هل هي الإثارة المكتسبة نفسها (عن طريق العائلة أو الثقافة) التي تجعل من هذه الظاهرة الجسدية أكثر أهمية وذلك بالقياس إلى شخص آخر ينحدر من وسط اجتماعي آخر من المعروف، وفي إطار الممارسة الإكلينيكية، أنه لمن الصعب جدا تحديد الأولوية في إطار ظاهرة نفسية عصبية.

وفي هذا الخصوص كتب أحيراكيرا De Ajuriaguerra استنادا إلى سلسلة من التجارب التي أجرتها على المصابين بالصرع والذين يعانون من أمراض نفسية أخرى يقول: "يوجد داخل هذه الحالات وعلى الأغلب مركب داخلي بالغ الأهمية ولكن تقييم هذا التسوع العتواني يمكن أن يفسر من خلال تنظيم الشخصية ومن خلال العوامل البيئية المحيطة".

وليس مستغرباً عبر هذه الصورة أن تكون العقاقير النفسية غير قادرة على إثارة نتائج واحدة، فالعقار D.P.H وهو تركيب يوظف في علاج الصرع والأمراض النفسية، يتتنوع في تأثيره من فرد إلى آخر. لقد سجل الدكتور تيرنير W.J.Turner الذي استخدم هذا العقار في معالجة مئات المرضى، أن هذا العقار لم يظهر أي تأثير عند ٣% من الحالات وأن ١٠% أظهروا تغيرات سلوكية غير قابلة للنقاش. وهذه النتائج تعزز الملاحظات التي تجري بشكل دوري حول تنوع تأثير الكحول: بعض الناس يشعر بالكآبة وبعضهم يشعر بالغبطة وبعضهم يشعر بالنفور بينما يشعر بعض آخر بالميل إلى العنف.

## تأثير الوراثة Hérédité

تجري التأثيرات الوراثية، كما هو معروف، بواسطة الخلايا العضوية المعقدة "الجينات Les Genes" والتي تمارس تأثيرها على المستوى البيولوجي كما على المستوى الذهني والنفسى.

هذا وينتفع أكثر الاختصاصيين (ومنهم كروك Crook على سبيل المثال) مع ذلك على نفي تأثير التحولات الجينية في السلوك العدواني، وعلى خلاف ذلك يمكن لفعل العدواني أن يولد تحت تأثير نماذج من التحرير يجعله يبدو وكأنه سمة وراثية. هناك بعض العوامل الفطرية التي توجه السلوك العدواني: رد الفعل والانفعالية والقوى الفيزيائية والنشاط الهرموني الخ... ومع ذلك يلاحظ أن بعض السلالات العائدة إلى نوع واحد يمكنها أن تظهر تبايناً كبيراً في مستوى سلوكها العدواني.

ونطرح هذه المسألة وفق صيغة مماثلة على المستوى الإنساني، فالكروموسومات XX التي تحدد الجنس الأنثوي، والكروموسومات XY التي تحدد الجنس المذكر تسهم وبشكل غير مباشر في تحديد درجة العدوانية وفي نسب الإفرازات الهرمونية وذلك عبر تأثيرها على القوة الفيزيائية للجسد.

ويشار هنا غالباً إلى فساد في هذه الكروموسومات التي تأخذ صيغة XXX وذلك لتفسيير السلوك الإجرامي، وتسرير الأبحاث الحديثة التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى وجود مثل هذه الحالة عند فرد واحد من أصل ٥٥، ويلاحظ في هذا الخصوص أن القضاة يأخذون أهمية هذا الجانب البيولوجي بعين الاعتبار، ومع ذلك لا يمكن دائماً ملاحظة وجود علاقة

مبشرة بين تزامن هذه الظاهرة والجريمة، وعلى خلاف ذلك تشير دراسات عديدة إلى أهمية العامل الفيزيائي عند حملة هذا التشهير الكروموزمي، وبالتالي فإن هذه البنية يمكن أن تؤثر وبطرق مختلفة وبصورة مباشرة على السلوك.

فالناس يختلفون فيما بينهم، من فرد إلى آخر، وذلك يفسر إلى حد كبير بعض إمكانيات التباينات السلوكية، ومع ذلك فإن الأفراد أنفسهم لا يتتجون السلوك نفسه، كما سترى لاحقاً، فإن الاختلافات السلوكية تعود بين الناس وبشكل أساسي إلى العامل الثقافي.

### تنوع أواليات العدوان:

تحذر نتائج التجارب الحديثة لعلم النفس الفيزيولوجي من التوظيف البسيط لمفهوم غريزة العدوان حتى في مستوى الحيوانات الدنيا. لقد ذكرنا منذ قليل بأن مفهوم الغريزة يطرح بحد ذاته مشكلة. وفي هذا الخصوص يمكن الإشارة إلى السيد رি�شارد G.Richard الذي يعلن في سياق محاولته لإعادة النظر في صورة استخدام هذا المفهوم قائلاً: بدأ أكثر الباحثين بالتوقف عن استخدام مفهوم الغريزة بعيداً عن مضامينه التي اكتسبتها في سياق تاريخي أو بعيداً عن قيمته الحقيقة التي تمتلك طاقة تفسيرية بالنسبة للسلوك " فمهما يكن الأمر فإنه يمكن لنا اليوم أن نرفض جزئياً مفهوم غريزة عدوان قابلة على التأثير بصورة أحادية أو كثيلة واحدة، حيث يتفق أغلب علماء الأخلاق وعلماء النفس الفيزيولوجي حول هذه النقطة، وهم مع ذلك يؤكدون على ضرورة تحديد التنوعات السلوكية في إطار دلالاتها البيولوجية. وعلى هذا الأساس يعلن كارلي Karli: أن الفيزيولوجي لا يدرس الأساس الفيزيولوجي

للعدوان بل يظل الحالـة الفـيـزـيـوـلـوـجـيـة الأـسـاسـيـة الـتـى تـشـكـلـ منـطـقـ بـعـضـ النـماـذـجـ السـلـوـكـيـةـ العـدـوـانـيـةـ المـحـدـدـةـ، وـبـالـتـالـىـ فـيـهـ عـنـدـمـاـ يـعـالـجـ مـعـطـيـاتـهـ حـولـ مـخـتـلـفـ النـماـذـجـ العـدـوـانـيـةـ خـالـبـاـ مـاـ يـلـاحـظـ كـمـ حـالـاتـ الإـشـارـةـ المـسـؤـولـةـ تـنـطـوـيـ عـلـىـ بـعـضـ الـعـلـمـيـاتـ الـخـاصـةـ".

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى عالم الأعصاب الفيزيولوجي موير K.E.Moyer ١٩٧١ الذي استطاع من خلال تحليله للمثيرات أن يميز بين نماذج سبعة للعدوان منها: الخوف، والغضب الناجم عن الدفاع عن الأرض، والسلوك الطفولي، والصراع الذي يجري بين الذكور؛ واستطاع فيما بعد أن يحدد الأجهزة العضوية العصبية والهرمونية بالنسبة لكل نوع من هذه الأنواع السلوكية العدوانية.

### **العدوانية بين معطيات علم النفس وعلم الفيزيولوجيا:**

تبين المادة التي عرضناها بصورة مختصرة أن عالم الفيزيولوجيا لا يستطيع أن يصل بمفرده إلى تحليل مسألة العدوانية في أبعادها الداخلية، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن تتجاهل مع ذلك معطياته، ويلاحظ عادة في هذا السياق أن المهنيين (وبضاف إليهم النظريون) في مجال العلوم الإنسانية غالباً ما يتتجاهلون معطيات العلوم الطبيعية، ويدرك في هذا الصدد بيوتوندجيك Buytendijk في مقدمة كتابه العملاق تمهيد في الأنثروبولوجيا الأنتروبولوجية قائلاً: "يجب على عالم النفس في إطار ممارساته المهنية المتنوعة، كما يجب عليه أيضاً في إطار أحاثه التعربيّة الخاصة بالسلوك والحالات المعاشرة أن يدرك جيداً وظائف الجسد وما هي (مثل الأعصاب

الحسية السمعية البصرية والنظام العصبي، وعملية الأيض، والهضم، والدورة الدموية، والتنفس والوظائف الهرمونية، وعمليات الضبط الذاتي) وذلك كله من أجل فهم الإمكانيات التي تجعل من الجسد حالة دينامية والتي تعطي الروح إمكانية الوجود الشخصي عبر جسدها.

فالأتجاه الفيزيولوجي يسعى إلى تحديد العلاقات المتتابعة وما يرافقها، فهو يشير على سبيل المثال إلى أن الظروف والمتغيرات تؤثر في طبيعة السلوك الإنساني وتزيد من احتمالات وجود التزاعات الاعدالية، ويشير هذا الاتجاه أيضاً إلى وجود تغيرات في الانفعالات العاطفية وذلك عندما يتعرض الدماغ لتأثير المخدرات وإلى وجود توجهات سلوكية جديدة عند الكائن وهو في النهاية يحدد أدوات التأثير الفعالة.

فعلم الفيزيولوجيا يحدد لنا ما يمكن للعضوية أن تقوم به على وجه الاحتمال، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يحدد لنا ما يمكن للفرد أن يقوم به على نحو فعلي في هذه الحالة أو تلك، فهو يعطي صورة عن جوهر السلوك ومنطقه، ولكنه لا يستطيع الإجابة بصورة قطعية عن مسألة السببية أو الدلالة الخفية للسلوك، فالحال الصوتية واللغة وبعض المناطق الخاصة بالقدرة الدماغية الخ.. جميعها ضرورية من أجل التعبير الشفوي، ولكن ذلك كله لا يمكنه أن يفسر لنا طبيعة حديث ما ينفوه به المرء.

فححدث سلسلة من الأفاعيل السلوكية يتطلب بكل وضوح عضوية ما، وبني وأنظمة تعمل على تنظيمها، ولكن جميع هذه الشروط لا يمكنها لوحدها أن تجعل السلوك حادثاً، فالفيزيولوجي يبحث في الشروط الفطرية الأولى للسلوك والتي تفترض مختلف نماذج السلوك العدواني ولكنه من المؤكد اليوم

بأن الأجهزة العضوية تمتلك مثل هذه الدورات العصبية التي يمكنها أن تتدخل بالضرورة تحت تأثير عضوي داخلي، وبالتالي فإن أعمال عالم الفيزيولوجيا حول البنى الفيزيولوجية الداخلية لا تسمح لنا بإدراك العلاقات الفعلية بين العضوية وعالم السلوك. وفي هذا السياق يمكن لعالم الفيزيولوجيا وغير قرار منهجي، أن يضع هذه العلاقات بين فوسين وذلك من أجل أن يتقدم بصورة أفضل في مجال عمله الخاص.

وفي هذا الاتجاه يعلن عالم الأعصاب الفيزيولوجي كارلي P.Karli أن المرضات الداخلية (أو الخارجية) تأخذ قيمة محركه وذلك في علاقتها بالتجربة العضوية أو العلاقة مع اتجاه الدلالة التي تستقبلها.

فيإذا كانت العمليات الفيزيولوجية عند الحيوانات هي التي تحرك السلوك فإن الصيغة السيكولوجية هي التي تحدد، وذلك في بعض الشروط، دلالة وأهمية الحالة الجسدية. وبشير كاتز D.Katz في هذا السياق أن شهية الفتران والدجاج تتفاوت عندما توجد هذه الحيوانات في وضعية قلق وتوتر، لا بل يمكن أيضاً لهذه الشروط أن يجعل هذه الحيوانات تشعر بحالة جوع شديدة، ويوضح كاتز في مجال آخر أن هذه الحيوانات تشعر بالجوع لمجرد أن تبدأ حيوانات مماثلة بتناول الحب، فعندما توضع دجاجة شبعانة أمام أخرى جائعة فإن الأولى تبدأ بالحصول على الطعام وذلك عندما ترى الثانية سرعة في نقر الحب، وتتأثر ذلك يتزايد إذا وضعت دجاجة واحدة شبعة مع ثلاثة دجاجات جائعة، وعلى خلاف ذلك عندما نضع ثلاثة دجاجات شبعة مع ثلاثة دجاجات جائعة لا يكفي لإثارة سلوك غذائي عند الدجاجات الشبعة.

أما فيما يتعلق بالإنسان فإن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينكر أبداً تأثير الحالات الانفعالية والعاطفية والطقوس والرموز في درجة شهيته، فالعلاقة بين الشروع بتناول الطعام وال حاجات العضوية هي هنا أقل تحديداً، فهذه الشهية ترتفع عند الحيوانات أو تخفيض نسبياً ولكن يجب أن نأخذ أهمية التربية والعادة عند الإنسان.

فانخفاض الشهية الذهني الذي يختلف عن المرض الذي يحدث بتأثير الغدة النخامية، يؤكد على أن التباينات الداخلية والخارجية التي تشكل قوام الشهية لا تمتلك معنى واحد أو دلالة واحدة.

فالشهية العادمة يمكن أن توصف وكأنها حالة من الضغط المتموج المحدد جسدياً والذي يفسر بوصفه حاجة غذائية. ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى الملاحظات الإكلينيكية لكل من سيدس Sidis وكودهيرت Goodheart والتي تشكل دليلاً على هذا التصور، وتجسد هذه الملاحظات حالة مريض فقد ذاكرته الخاصة باللغة والمخطط الجسدي إثر تعرضه لإصابة دماغية. لقد لوحظ أن هذا المريض عندما يترك من غير طعام فإنه يتعرض للإثارة ولكنه لا يفهم هذه الإثارة والانفعالات التي تشير إلى الجوع، وما حدث هو تدريب المريض على أن هذا الضغط الجسدي يمكنه أن يزول عندما يحصل على الطعام.

وبعيداً عن التصورات المعاذجة التي ترى بأن الأحساس الجسدية ثانوية وبأنها تشكيلاً نمطيّة تحددها النفس فإن العمليات العضوية تترك تأثيرها في السلوك، وبالتالي فإن تأثيرها لا يتحدد بما نملكه عنها من معرفة، فالجسد،

كما يقول بيونتديجيك 1958، هو حالة محفزة، وبالتالي فإن هذه الحالة تؤثر وبصورة لا يرقى إليها الشك في جميع أوجه النشاط والوجود، ولكن رغم ذلك فإن هذا التأثير يجري دائماً بالعلاقة مع الدلالة العامة (التي لا يتم التفكير فيها) والتي ترتهن كلها بالسياق العام الذي توجد فيه.

**المبحث الثامن:**

## **جرائم ضد الطفولة والإنسانية: حمامات الدم وتجارة الأعضاء البشرية**

إننا نبدأ في الاقتراب من الموت ساعة نولد

ماتيليوس

تأخذ العدوانية مظاهر اجتماعية متعددة ومرعبة في أن واحد تتمثل في العنف ضد المرأة والأقليات والقاصرين والفنانات الاجتماعية المهمشة، وتختنق الإنسانية أيضاً بمظاهر العدوانية التي تأخذ طابعاً قومياً ودينياً وعرقياً وسياسياً. فالعالم الذي نعيش فيه يغص بأفظع الجرائم التي يرتكبها السفاحون والقتلة وال مجرمون في مختلف مجالات الحياة الإنسانية. وتأخذ هذه العدوانية التي تتمثل في الجريمة والجريمة المنظمة أخطر أشكال العنف والعدوانية في المجتمع الإنساني المعاصر. وتعد جرائم القتل التي ترتكب من أجل الحصول على الأعضاء البشرية وبيعها في سوق النخاسة من أخطر وأدھى مظاهر العدوانية الإنسانية. فقتل الأطفال من أجل أعضائهم يعد اليوم من أكثر مظاهر

البؤس الإنساني والعدوانية البشرية فظاعة وتوحشًا. لأنه في هذا النوع من العدوانية المرعبة يتجاوز السفاحون كل حدود وقيود في مدى إجرامهم الذي يفوق جمادات الخيال وشطحات التصور الإنساني. فالجرائم التي ترتكب اليوم بحق الأطفال هي من النوع الذي ترتعد له الفرائص وتخلع له القلوب وتندaci على معه إمكانيات الاحتمال.

فقانون السوق لا يعرف حدوداً لإرهابه وفضاعته، فهو يحتاج اليوم جدران المشافي والمصحات ويفتك بالأطفال أكثر كائنات الوجود طهارة وبراءة. فالطلب على الأعضاء البشرية يتزايد دون توقف في البلدان الصناعية المتقدمة، وذلك من أجل نقلها وزرعها لأناس يملكون القدرة والاقتدار مادياً واجتماعياً. ومع ذلك فإن القول بأن شراء الأعضاء البشرية من كلٍّ وقراحتٍ وأنسجة يتم بالتراضي حيناً وبالإغراء حيناً آخر قول لا غرابة فيه ولا هجامة. أما أن يكون الحصول على هذه الأعضاء البشرية بالقوة حيناً وبالخطف حيناً آخر أمر فيه من الاستهجان والنفور ما لا يمكن للإنسان أن يتحمله.

إن الأخطر والأدهى أن يكون التبني الخادع للأطفال سبيلاً لاستصال أعضائهم وبيعها في أسواق النخاسة وهو الأمر الذي يندى له جبين الإنسانية خجلاً. بهذه الطريقة البشعـة والقطيعة يتم اليوم خطف الأطفال وبيع أعضائهم في أمريكا اللاتينية وفي أماكن أخرى من العالم. وهناك اليوم شبكات إجرامية عالية التنظيم تعمل على تجارة أعضاء الأطفال والراغبين.

هناك إشاعات مرعبة اليوم تتوجّل في كل مكان من أمريكا اللاتينية وهي تبـثـ والخوف والذعر في كل مدينة وريف ومكان ومقادها أن الأطفال الذين

يختطفون وهؤلاء الذي يتعاونون من أسر فقيرة تبتز أعضاؤهم وتباع إلى  
هؤلاء الذين يحتاجونها في مناطق مختلفة من العالم.

في آذار الماضي وفي مدينة سان لويس بونتوسي في البرازيل أعلن السيد  
ليبرانو ريكافار M.Libardo Ricavar السكرتير العام للحكومة الإقليمية عن  
الشرع في تحقيق حول مسألة تجارة الأعضاء وخطف الأطفال في منطقة  
ألتiplano في المنطقة، وقد ثبّن من خلال التحقيق أن الأطفال الذين  
تعرضوا للخطف قد أعيّناً بعد مدة أسبوع إلى منازلهم بعد أن فقدوا بعضًا من  
جسدهم وخاصة الكلى والقرحات وغيرها. وقد أعلن محافظ المنطقة أن  
هؤلاء الأطفال تم سوقهم إلى مُشافي خلصة على الحدود الأمريكية حيث تمت  
إجراءات الحصول على أعضائهم. وأعلن أيضًا أن هذه التجارة موجودة في  
الإقليم المجاور في تاموليباس Tamaulipas المتاخمة للولايات المتحدة الأمريكية.  
وقد أعلن محافظ المنطقة أيضًا أن آلاف الدولارات قد دفعت للعائلات المنكوبة  
وذلك من أجل الحصول على الصمت<sup>(١)</sup>.

وبعد أسبوع من هذه التصرّفات وعلى أثر استئنافه سريعًا أعلن  
الدكتور سالازار مارتيني Salazar Martinez مدير الخدمات الصحية في الولاية  
عن إغلاق الملف الخاص بالتحقيق في المسألة وقد برر ذلك بقوله: إن عمليات  
بتز الأعضاء تحتاج إلى مؤسسات صحية ولذلك فإن القول بوجود مثل هذه  
الحالات محض خيال وتصورات وهمية. علما بأن حاكم الولاية قد أعلن بكل  
صراحة أن هذه العمليات قد تمت على الحدود المجاورة للولاية وأن هذه  
العمليات تمت بطريقة عبئية. ومع ذلك فإن إدارة الخدمات الطبية رفضت مثل  
هذه الاتهامات تحت حجة تقول بأنه لا يوجد في سان لويس بونتوسي أية

مستشفيات قادرة على إجراء هذه العمليات. وفيما بعد رفض الدكتور سالازار ماريوني أية مقابلة صحفية والإجابة عن أيه أسئلة تتصل بالمسألة.

ومن جهة أخرى لوحظ أيضاً أن حاكم الولاية السيد ليباردو لزم الصمت وابتعد عن وسائل الإعلام بطريقة فيها كثير من الغرابة وأصبح من المصعب جداً إجراء لقاء معه ومحادثته تلفونياً. ومع ذلك فلا شيء من هذا يستدعي الدهشة أو الاستغراب فجميع هؤلاء الذين كانوا قد أعلنوا عن هذه التجارة، من وزراء وموظفين كبار وقضاة وغيرهم، عدلوا من شهادتهم وأكروا على الصمت.

وقد حصل مثل هذا السيناريو في سان بيدرو سيلا San-Perdo-Sula في هوندوراس Honduras وذلك في نهاية عام ١٩٨٦ حيث أعلن رجال الأمن عن وجود مراكز رعاية للأطفال غير شرعية وأن الأطفال الذين يوجدون في إطار هذه المراكز قد أرسلوا إلى الخارج بصورة غير شرعية وذلك بذرية التبني.

وفي كانون الثاني عام ١٩٨٧ وبعد عدة أسابيع من البحث والتحصي حدث المفاجأة الكبرى وذلك عندما أعلن السيد ليوناردو فييليدا Leonardo Vilida الأمين العام للرعاية الاجتماعية القومية أن الهدف من إرسال هؤلاء الأطفال إلى الخارج هو استصال أعضائهم وبيعها. وبصيف السيد ليوناردو أن المؤسسات الخيرية التي تستقبل مرضى جسديين أو نفسيين قد تعرضت لخداع التجار وسماسرة الأعضاء البشرية. وفي إطار لقاء مع صحيفة تريبيانا Trebuna وعلى أثر مقابلة أيضاً في زانجو أمريكا قدم السيد ليوناردو تفاصيل عن تقصياته وهو يستخلص قائلاً: يوجد لدينا البرهان القطعي بأن الأطفال الذين تم شراؤهم أو خطفهم قد يبعوا إلى منظمات إجرامية في الولايات

المتحدة الأمريكية بسعر ١٠٠٠٠ دولار في الحد الأدنى لكل طفل من أجل استئصال أعضائه وبيعها<sup>(٢)</sup>.

وبعد شهر من هذه الحادثة ظهرت فضيحة غواتيرال: حيث اكتشف رجال الأمن شبكة ترسل الأطفال إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وكان من بين الأشخاص الذين ألقى القبض عليهم السيدة أو فيلا روزال Ofelia Rosal وقد أعلن السيد بوديليو هيسوس Baudilio-hi chos رئيس المخابرات السرية قائلاً: «حن نعرف أن الأطفال الذين أرسلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بذريعة التبني قد استخدموها في الاستفادة من أعضائهم»<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا البلد نفسه أعلنت إدارة الشرطة في عام ١٩٨٨ عن اعتقال رجلين إسرائيليين يقومان بتجارة الأطفال وهما ميشيل ولوبيز روتمان، وقد أعلن ميكويل أكويرر Miguel Aguirre المدير العام لمكتب مكافحة المخدرات بأن المعقلتين اعترفا بأنهما يرسلان الأطفال إلى إسرائيل وإلى الولايات المتحدة وأن الأطفال يباعوا بسعر ٧٥٠٠٠ دولار إلى عائلات تحتاج إلى أعضاء سليمة لأطفالهم<sup>(٤)</sup>.

### تبني وتقطيع:

وعلى أثر مجادلات حادة في السفارة الإسرائيلية التي حاولت الاعتراض على الاتهام البشع والقائم على أساس الإعلان اللامسؤول لأحد الموظفين، وأعلنت السفارة بأنه يستحيل التفكير بأن مثل هذه الجريمة يمكن أن ترتكب في إسرائيل فالقوانين في إسرائيل تمنع هذه الإجراءات وأن الحصول على الأعضاء يتم في إطار شروط معقدة وخاصة وفي منتهى الصعوبة.

وفي السفارة الأمريكية أيضاً صدر منشور يكذب العادنة وأن المعلومات التي تنشرها الكرافيكو كانت خاطئة وأصرت السفارة على أن هذه العملية كانت تدبرأً كوبياً سوفيتياً، وبالتالي فإن هؤلاء الوزراء والمحامين والأطباء والقساوسة أو المنظمات الداعية عن الأطفال ما هم غير أصدقاء لموسكو<sup>(١)</sup>.

وعندما أُعلن البرلمان الأوروبي في عام ١٩٨٨ عن إدانته لتجارة الأطفال أنهم السيد ريتشارد سيفر نائب السكرتير العام للدولة في واشنطن بأن هذه الأقوال هي نوع من الدعاية السوفيتية.

وفي أيلول من عام ١٩٨٨ أدت التحقيقات التي أثارها أحد القضاة في الباراغوي ضجة كبيرة. لقد اكتشف البوليس شبكة لتصدير الأطفال البرازilians، وقد سأل القاضي المتهمين فائلاً لهم هل أرسلوا هؤلاء الأطفال الأبرياء من أجل التبني أم من أجل التقصيب؟ لقد لاحظ القاضي بأن الأسر التي كانت تتبنى هؤلاء الأطفال ما كانت تبدي أي اهتمام بوضعية الطفل الجسدية؛ لم يكن مهماً إذا كان الطفل كسيحاً أو عاجزاً وفي ذلك إشارة إلى الغاية التجارية من عملية التبني هذه. والقاضي هنا يضع الإصبع على الجرح فتجارة الأعضاء البشرية هي نوع من "الذابو" المحرم وبالتالي فإن اكتشاف هذه الجريمة مسألة بالغة الصعوبة<sup>(٢)</sup>.

لقد استدعي القاضي إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية ثم قامت السفارة بنشر إعلان يكشف أن القاضي قد أعلن خلال المقابلة فائلاً: لن تنت أعضاء الأطفال وتباع أبداً في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك حدث أمور جديدة في كانون الأول من عام ١٩٨٨ حيث أعلنت الصحف البوليفية القصة نفسها التي ذكرها روزينا ومفادها أن طفلة

صغيرة اختطفت ثم أعيدت إلى ذويها بعد أن افتعلت عيناهما. لقد اتهم البوليس المراكز الصحية بارتباطها مع شبكات المافيا. وعلى أثر ذلك أعلن لويس أرماندو وهو مطران شيمبوتو بأن الأطفال الفقراء والعاجزين قد قتلوا وذلك من أجل بيع أعضائهم<sup>(٨)</sup>.

لقد أعلن البرلمان البرازيلي في ديسمبر الأخير عن مقتل سبعة آلاف طفل خلال السنوات الأربع الأخيرة. وأعلن الأب بارييل Barruel وهو أستاذ للعلوم الدينية في جامعة ساوباولو أن ٧٥٪ من جثث الأطفال هذه قد تعرضت لعمليات جراحية داخلية وأن الأعين قد استُوصلت بالنسبة لغالبية جثث الأطفال.

وفي المكسيك تزداد الاتهامات وتتراءكم ففي ٢٤ تموز ١٩٨٩ أعلن مراسل صحيفة الإنديفiral El universal في بيبلا Puebla عن اختطاف ثلاثة أطفال ويصف ذلك الأمر بصورة دقيقة مفصلة: في إحدى القرى القريبة من مدينة ريكويشال تم اختطاف أحد الأطفال وبعد عدة أسابيع عثر عليه في مدينة تلاتوكينيك Tlatlauquitepec وذلك على بعد ٥٠ كم من منزله وذلك بعد أن تعرض الطفل لعملية جراحية فقد فيها إحدى كلينيه. وتم بعد ذلك علاجه في مشفى بيبلا. وأضاف الصحفي: رفض الناس تحت تأثير الذعر والخوف من الانتقام إعطاءي معلومات أكثر نقا<sup>(٩)</sup>.

وعلى أثر ذلك أعلن معاون النائب العام الفيدرالي في المكسيك السيد كوستافو باريتو رانجيبل Gustavoo Bareto Rangel في آيلار عام ١٩٩٠ أن اختفاء هؤلاء الأطفال قد يعود إلى تجارة الأعضاء التي تمارس في الحدود الشمالية للبلاد<sup>(١٠)</sup>. وفي تشرين أول شكل البرلمان لجنة لدراسة المسألة

برئاسة السيد هيكتور راميري كيلار Hector Ramirez Cular وقد أعلن رئيس هذه اللجنة بأن العمليات الجراحية تجري بين Rosarito Tijuana وأنه يشتبه بوجود مشافي خاصة سرية - ويضيف هيكتور هذا بأن الأطفال المختطفين يمكن استخدامهم لتغطية الحاجات المتتالية للأجانب الذي يأتون إلى هذه المنطقة وذلك من أجل الحصول على قطع تبديل بشرية <sup>(١٠)</sup>.

وفي الوقت الذي أعلن فيه عن وجود هذه المشافي السرية بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية ظهرت في إيطاليا فضائح تجارة الأطفال وذلك في لوكس دي نيزو Lacasdi Nuzzo ففي خضون أربع سنوات بلغ عدد الأطفال البرازilians الذين وصلوا إلى إيطاليا للتبني أربعة آلاف طفل.

لقد تم العثور على ألف طفل من هؤلاء الأربعة آلاف، ولم يعثر على أكثر للثلاثة آلاف الباقية. وما يوسع له أن طلبات التبني تتزايد باستمرار وذلك من قبل الأسر كبيرة العدد حيث توجد العصابات نفسها. وعلى أكثر ذلك كلف قاضيان إيطاليان وهما إنجليلو كاركانى Angelo Gargoni وسيزار مارتينيلو Ceser Martrinelo باستقصاء الأمر في البرازيل والسلفادور، وبدورهما حذرا الحكومة من وجود عصابات تقوم بتجارة الأعضاء عند الأطفال وأن الأطفال يرسلون إلى مشافي سرية في المكسيك وفي تايلاند وفي أوروبا أيضاً حيث يتم تقطيعهم والحصول على كامل أعضائهم السليمة. وعلى أكثر ذلك طلب الحكومة الإيطالية مساعدة الأنتربول الدولي <sup>(١١)</sup>.

ومنذ عام ١٩٨٧ بدأ الطلب على الأعضاء البشرية يزداد في البلدان المتقدمة. لقد أدت بعض الاكتشافات وخاصة الفياسبان (Viaspan) إلى المساعدة على نقل بعض الأعضاء والاحتفاظ بها حية لمدة زمنية أطول فالكلبد على

سبيل المثال يمكن الاحتفاظ به بواسطة هذه المادة لمدة ٣٦ ساعة وذلك بدلًا من ٨ ساعات والقلب يمكن الاحتفاظ به لمدة ١٢ ساعة بدلًا من ٤ ساعات.

وبفضل تقدم العلم فإن الجسد الإنساني يتحول إلى مادة أولية خام قابلة للتصنيع مثل الدم والأعضاء والجلد والعظام والمعدة والأمعاء والشعر، وكل ذلك يصبح قابلاً للاستثمار والتجارة في الوقت نفسه (١٢).

لقد لجأت المنظمة العالمية للصحة وذلك منذ عام ١٩٩٠ إلى تبني بعض المبادئ الإنسانية أبرزها هو أنه: يمنع إطلاق الحصول على أي عضو من قاصر وذلك بخلاف زرعها ونقلها. ولكن الواقع الأمر يكشف اليوم عن وجود عدد كبير من الفضائح الخاصة بالأسواق السوداء للأعضاء البشرية. ويلاحظ في هذا الخصوص أن الشقاء الكبير لشعوب البلدان النامية يجعلها فريسة سهلة لتجار الدماء.

لقد بينت صحفة الانسيه The Lancet أن هناك مائة وثلاثين شخصاً تتراوح أعمارهم ما بين ست سنوات والستين ذهبوا إلى بومباي Bombay وذلك من أجل الحصول على كلٍ وبعض الأطباء الهنود يبررون شرعية هذه التجارة التي تحدث في بومباي بالهند ومدارس Madaras وذلك بذريعة أن المعطين الواهبين لأعضائهم يقومون بذلك على نحو إرادي تحت تأثير الحاجة للمال (١٣).

وقد ظهرت حديثاً في أمريكا اللاتينية ثلاث فضائح تتعلق بنمو هذه التجارة. حيث أعلنت وزارة الصحة الأرجنتينية في شباط عام ١٩٩٢ بأن مدير مشفى الأمراض العقلية في مونت دو أوكا Montes de Oca القريب من مدينة بيونس آيرس Buenos Aires متهم بالحصول على دماء وأعضاء المرضى

وقد تم البحث عن وجهة إرسال هذه الأعضاء وخاصة الأطفال الذين ولدوا داخل هذه المؤسسة. وأعلنت الوزارة عن إحصائيات رهيبة بينت فيها أن عدد الموتى قد بلغ ألفاً وثلاثمائة وواحداً وعشرين مريضاً ولقد بين الاستقصاء وذلك من خلال المقابر المحيطة بالمشفى سر احتفاء ألف وثلاثمائة وخمسة وسبعين مريضاً<sup>(١١)</sup>. هذا وتعد الأرجنتين ومنذ زمن بعيد كواحد من البلدان التي تنتشر فيها تجارة الأعضاء البشرية. فمنذ عام ١٩٨٥ قام القاضي ماهيكز Mahiquez بإحراء دراسة حول مسألة تجارة الأعضاء والدماء في مونت دوكوكا، وبعد ستة أشهر من هذه الدراسة أغلق الملف. وفي عام ١٩٨٧ جرى استقصاء من قبل وزارة الصحة حول شائعات عن تجارة بأعضاء الأطفال، ومع ذلك فإن الوزارة نفسها أعلنت في كانون الثاني عن موافقة وجود هذه التجارة الخاصة بأعضاء الأطفال<sup>(١٢)</sup>.

### المجازر:

وعلى أثر الأرجنتين يمكن الإشارة إلى كولومبيا ففي آذار من عام ١٩٩٢ كشف النقاب عن الفضائح الرهيبة الخاصة بالدكتور فرانكشتاين Frankenstein وذلك في بارانكيللا Barranquilla حيث تم العثور على عشر جثث، إحداها لمرأة لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأخرين يبلغون الأربعين من عمرهم. لقد تبين أن حرس الكلية كانوا يضربون الشحاذين بعض لها رأس الدبوس ثم يقوم الأطباء باستئصال الأعضاء الأكثر أهمية وربما والتي يتم بيعها على الفور في السوق السوداء وبعدها يتم استخدام الجثث في الأعمال التدريبية لدروس التشريح أو ترمي في أكوام الجثث

المنتهية<sup>(١٠)</sup>. ففي كولومبيا أكتشف ما يرعب ويحيف حيث توجد المجازر وخاصة في المناطق التي يكثر فيها الفقراء والشاذون والأطفال المشردون وذلك كله من أجل تزويد بنوك الأعضاء البشرية. ففي أكتوبر من عام ١٩٨٩ بینت جريدة التيموبو ثم فيما بعد الدكتور نستور ألفاريز Nestor Alvarez في مقابلة له في راديو كندا أن عدداً من صبيان الشوارع وجدوا مقتولين وذلك بعد الحصول على أعضائهم. وفي آذار ١٩٩٠ نشرت القناة التلفزيونية الثانية تقريراً بینت فيه بالصورة فتاة تعرضت للخطف ثم أعيدت إلى أهلها بعد أن تم افلالع عندها. وفي أكتوبر ١٩٩١ وفي المدينة نفسها تم تنظيم مظاهرة اجتماعية تم فيها شجب عملية اختطاف الأطفال.

لقد أعلن أحد الفلاحين وأمام كاميرا التلفزيون بأنه عثر على جثة طفل صغير في الرابعة من عمره ولاحظ بأن الطفل قد تعرض لعملية جراحية أفقدته عينيه قبل الموت وقد أشارت صحيفة التيمبو El Tiempo أنه في البداية لم يستطع موظفو المساعدات العائلية تصديق الفلاح الذي يدعى كاريود ميزا ولكن الطبيب أكد وفاة الطفل وأكَد أيضاً أن مجرِي عينيه كانا خاليان<sup>(١١)</sup>.

وفيما بعد لم يستطع القاضي المكلف بالتحقيق أن يعثر على أسرة الطفل أو على كاريود ميزا. وعندما طلب القاضي المكلف بالتحقيق العودة إلى جثة الطفل غير المحققة أجيب أن هذا غير ممكن حيث أعطي ملفات عديدة لا يستطيع التمييز بينها، وفي الأرغواي Uruguay في نيسان الأخير ظهرت شبكة تقوم بإرسال الراشدين صواعداً من أجل بيع كلهم وذلك في المشافي البرازيلية. ومن بين هؤلاء المستفيدين من كل الفقراء يمكن الإشارة إلى بعض السياسيين والوزراء.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن التقصيات لم تصل إلى غايتها على الرغم من وجود الشهود والضحايا يمكن القول أن تجارة الكلى تجري بشكل واسع في المكسيك وهو بلد رائد في هذا الميدان منذ عام ١٩٧٠، وفي كولومبيا تجري تجارة الفرنية وهو البلد الذي يملك تراثاً عظيماً في هذا الميدان وذلك ما تنشره الدعايات، ومع ذلك يمكن اليوم لأي شخص أن يؤكد وبجدية تامة عن وجود سوق سوداء رهيبة لتجارة الأعضاء التي يذهب ضحيتها الفقراء وخاصة في البلدان النامية، وبعد الذهب والفضة والأحجار الكريمة وبعد البترول والقهوة والقطن، هناك البحث عن الأعضاء، فهل تصبح هذه الأعضاء الصورة المعاصرة للاستعمار الذي يهيمن من الشمال إلى الجنوب؟ هل ستتوفر هذه التجارة الأطفال؟

وفي السادس من يناير ١٩٩١ وخلال اجتماع لجنة هيئة الأمم المتحدة المكلفة بدراسة الأشكال الجديدة للعبودية أوصى الكثيرون باجراء بحث دولي حول هذا الموضوع. وفي تقريره الأخير يذكر السيد فيتيت مونتاربورن *Fittit Muntarbhorm* أنه من الصعب الوصول إلى براهين قاطعة حول وجود هذه التجارة علماً بأن الافتراضات والدلائل ما تزال في حالة ازدياد وتضخم<sup>(٢٠)</sup>.

ومن الأدلة على وجود هذه التجارة توسيع شبكات التبني غير الشرعية في أمريكا اللاتينية. وهناك جذب للأطفال كبير يتم من الجنوب إلى الشمال وهو استقطاب لا يمكن أبداً لحركة التبني أن تشرحه أبداً، ومع ذلك فإن رجال الدين في أمريكا اللاتينية ومرؤوزيهم يدهشون من هذه الظاهرة. لقد أعلن زعماء كنيسة سانت دومينيك وزعماء المجلس الديني في أمريكا اللاتينية بأنهم سيتابعون جميع الشكاوى الخاصة ببيع الأطفال وذلك من أجل عمليات التبني غير الشرعية وتجارة الأعضاء<sup>(٢١)</sup>.

ففي البر وحدها تم إرسال أكثر من ثلاثة آلاف طفل خلال ثلاثة  
أشهراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية وذلك على يد المحامي الأمريكي باتريك.  
فما هو مصير هؤلاء الأطفال؟ ولماذا أطلق سراح المحامي باتريك؟ وذلك هو  
دائماً حال الآخرين فما أن يلقى القبض عليهم حتى يخلّ سبيلهم؟ فهل هناك من  
حكومات يمكنها أن تدعم الأنتربيول من أجل إجراء تحقيق دولي؟ هل يجب أن  
ننتظر اكتشافات أخرى رهيبة مروعة من أجل تصديق هذه الحقيقة التي يقف  
لها شعر الإنسانية رهيبة؟

## مراجع وهوامش المبحث السابع

- (1) *La Jornada*, Mexico, 8 mars, 1992.
- (2) *El Sol*, mexico, 13 mars.
- (3) International children's right Monitor, 1er avril, 1987.
- (4) *El Tiempo*, Bogato, 9 janvier, 1987.
- (5) *El Grafico*, Ciudad- Guatimala, 24 Janivier et 27 Janivier ,1988.
- (6) *Nouvelle observation*, 11 juin, 1992.
- (7) *El diario*, Asuncion, 7 Aout ,1988.
- (8) *El comercio*, Lima, 14 Novembre, 1988.
- (9) *El Universal*, Mexico, 24 Juin, 1989.
- (10) *El Universal*, 7 mai, 1990.
- (11) *La jornada*, Mexico, 10 et 23 octobre ,1990.
- (12) *La republika*, 17 septembre ,1990.
- (13) *L'homme en danger de science ? Maniere de voir*, N. 15, mai ,1992.
- (14) OMS, *Rapport general*, 19 novembre ,1990.
- (15) *L'Evenement du jeudi*, 18 juillet ,1991.
- (16) *Clarín*, Buenos-Aires, 23 fevrier, 1992.
- (17) *Liberation*, 12 decembre, 1991.
- (18) *Semana*, Bogota, 10 - 17 mars ,1992.
- (19) *El Tiempo*, Bogota, 133 octobre ,1991.
- (20) Vittit Muntarbhorn, "Rapport devant la Commission des droits de l'homme ", 28 janvier 1991 et janvier ,1992.
- (21) Bulletin d'information missionnaire, 23 juillet, 1991.
- (22) *Le monde diplomatique* ,Aoout, 1992.

**خاتمة الكتاب:**

## **رؤية إجمالية : في العنف والعنف التربوي**

وجود السلاح باليد يغري بالقتل

جان جاك روسو

شكلت ظاهرة العدوانية الإنسانية، وما زالت تشكل، الجانب المظلم في تاريخ الإنسانية. وعلى الرغم من الأمال التي علقتها الإنسانية على الدور المتعاظم للتقدم الإنساني بجوانبه المختلفة في قهر هذه الظاهرة وتبييضها، وعلى الرغم من تعاظم القيم الإنسانية الجديدة التي تؤكد السلام والأمن والإباء والعدالة والديمقراطية ما زال العنف يطرح نفسه بظله التغيل ليهدى كل الأمال البشرية في حياة تسودها قيم المسالمة والأمن والإباء. فالنarrarix الحديث يسجل بأن العنف الإنساني ظاهرة تأخذ مداها المتعاظم في مختلف مجالات الوجود الاجتماعي، وتضرب وجودها بإحكام في مختلف القتواع الجغرافي، في الشمال وفي الجنوب، وفي الشرق والغرب، وترك بصماتها المأساوية على مختلف انطباعات الحياة في هذا العصر ولاسيما في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

ولزاء التحدي الذي تفرضه هذه الظاهرة على الإنسانية بدأ العقل الإنساني محاولاته منذ القدم لتفسيير أبعاد هذه الظاهرة ومكوناتها وخلفياتها الاجتماعية والنفسية والتاريخية. ومع قدم التجارب وأصالة الأعمال التي قدمت في هذا المجال ما تزال ظاهرة العنف بتجلياتها تتحدى العقل العلمي وست THEM جهود المفكرين وتستقر طاقاتهم في البحث عن الصاهية التي تحكم تقاليد هذه الظاهرة وهذه التي توجد في أصل تشكيلها وفي أسباب وجودها.

فالعدوانية الإنسانية من أخطر الظواهر التي تواجهها المجتمعات الإنسانية، وبالتالي فإن مصير الإنسانية برمته قد يرتهن بموقف شديد العدوانية يؤدي إلى إبادة الجنس البشري على سطح المعمورة. فأدوات العدوان والقهر والتكمير تنتشر في مختلف أرجاء الكون الإنساني، والإنسانية تمتلك من الأسلحة الفتاكية ما يمكنه القضاء على البشرية بمئات المرات. فكل فرد من أفراد المعمورة له ما يكفيه ويزيد عنه ويغطي من منتجات الفناء الإنسانية التي تتمثل في مئات الآلوف من أطنان القنابل الذرية والهيدروجينية هذا ذاiek عن الأسلحة الكيميائية والجرثومية التي يكفي بعضها لإبادة أضعاف مضاعفة لعدد سكان الأرض برمتهم.

فالعدوانية الإنسانية تحصد البشر والإبادة العرقية تجري اليوم على قدم وساق هنا وهناك، وهناك دول كبرى اليوم كالولايات المتحدة الأمريكية التي لا تتوρع عن إبادة أمم وشعوب بكمالها لمجرد الإحساس بخطر واهم أو حتى زائف. لقد بيّنت الأحداث أن الإدارة الأمريكية قد فكرت بشن حروب ذرية ضد بعض الدول العربية مثل سوريا والعراق وكذلك ضد إيران لمجرد التوهم بأن هذه البلدان كانت داعمة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر. ومن

منا لم يلحظ الرعب العالمي الذي هيمن على العالم خوفاً من لحظة جنونية تقوم فيها الولايات المتحدة الأمريكية بهجوم نووي مجنون على بعض الدول لمجرد بعض الشكوك الأمنية الواهية.

فالعالم يشهد اليوم انتشاراً مجنوناً للعنف والجريمة والمخدرات والقتل والانتحار. فهناك العنف ضد المرأة، والعنف ضد الأطفال، والعنف ضد الأقليات، زاهيّك عن العنف السياسي المنظم الذي يأخذ صورة الإرهاب السياسي والبياته.

وفي هذا السياق كلّه تأخذ العدوانية الإنسانية صورة ظاهرة إنسانية فائقة التعقيد، وإذا كنا قد عالجنا في هذا الكتاب بعض المظاهر السيكولوجية والفيزيولوجية للعنف والعدوانية فإنّ أبعد هذه الظاهرة تفرض نفسها في مختلف أبعاد ومظاهر الحياة الإنسانية. وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الظاهرة تشكّل نقطة تقاطع لمختلف الفروع الإنسانية بدءاً من علم النفس مروراً بعلم الاجتماع وصولاً إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسياسية. فالعنف والعدوانية يأخذان مظاهر مجتمعية وسياسية وقومية وعرقية وثنينية ونفسية متعددة. ومن هذا المنطلق نجد بأنّ العلوم الإنسانية تولي هذه الظاهرة أهمية مركزية وتعالجها وتبحث في تحدياتها ومظاهرها وعواملها وأثارها في المجتمع الإنساني.

وتأسيساً على ما تقدم نجد أن بعض الفروع العلمية قد ولدت وكرست لدراسة هذه الظاهرة بأبعادها المختلفة في مختلف العلوم الإنسانية، فهناك علم اجتماع العنف والجريمة وأنثروبولوجيا العنف وسيكولوجيا العنف والعدوانية، وفي السياسة نجد اليوم فرعاً يعني بدراسة الإرهاب السياسي، وهناك علم نفس التصub وعلم اجتماع التصub، وفي الدين نجد مباحث هامة حول أصول التصub والعنف.

وفي كل ميدان من هذه الميادين نجد أبحاثاً ودراسات ونظريات متكاملة حول طبيعة العنف والعدوانية الإنسانية. فالعلوم الاجتماعية تبحث في الظروف والعوامل الاجتماعية للعنف والعدوانية والتعصب، وعلى هذا المنوال تبحث العلوم النفسية في أصل العنف وعوامله النفسية، وذلك هو الحال في مجال الأنثروبولوجيا التي تبحث عن مظاهر العنف وتجلياته في المجتمعات الإنسانية البدائية.

وعلى الرغم من التعدد في النظريات والمفاهيم والتصورات التي تتناول ظاهرة العنف، فإن العنف يأخذ صورة ظاهرة إنسانية معقدة ومتكلمة بأبعادها الإنسانية والمجتمعية، فالنظريات المتعددة والأبحاث المتنوعة تشكل في نهاية الأمر محاولات نوعية للكشف عن جانب أو أكثر من جوانب الظاهرة العدوانية في الجنس البشري، لأن العدوانية تأخذ في النهاية صيغة واحدة تتمثل في منظومات من الأفعال الإنسانية التي تدمي الإنسان وتقتله بعمومات وجوده. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن العنف ظاهرة نفسية اجتماعية سياسية وأن العدوانية ظاهرة إنسانية يتکامل فيها الاجتماعي بالفسي والسياسي بالديني وبالتالي فإنه لا يمكن للباحث أن يدرك هذه الظاهرة إدراكاً متكاملاً وعلمياً إلا من خلال الغوص في أعماق التكامل بين العناصر المجتمعية والسيكولوجية والنفسية لهذه الظاهرة المعقدة.

وإذا كان العنف الإنساني يفرض نفسه على هذه الصورة المرعبة فإن مشروعية التساؤل عن ملابسات هذه الصورة تترك الباب مفتوحاً على مصراعيه، ومن هنا تزغ مشروعية البحث الإنساني عن حلول إنسانية لهذه الظاهرة التي رافقت الجنس البشري منذ البداية. فالإنسانية مازالت

عبر تاريخها الطويل تبحث عن السلام والأمن وعن السبل الكفيلة بابتصال المجتمعات الإنسانية إلى حالة يتضاعل فيها دور العنف والعدوان.

وفي هذا السياق نجد في كل مستوى من مستويات التأمل والنظر تصورات ومقولات تناولت بأهمية استقصال العنف واجتثاث جذوره. وهنا نطالعنا الرؤى السياسية التي تدعو إلى بناء مجتمعات إنسانية ديمقراطية وعادلة لأن الديمقراطية في نظر كثير من أرباب الفكر تشكل القاعدة الأساسية لاستصال شأفة العنف والعدوان ولا سيما مظاهره السياسية. وهنا أيضا تبرز الدعوات الدينية المتسامحة التي تناولت بقيم التسامح والمحبة قانونا إنسانيا يصون كرامة الإنسان وينقل به من دوائر العدوانية إلى مقامات السلام والمحبة بين البشر.

ولا يمكن لنا في هذا السياق أن نتجاهل أهمية الرؤى والتصورات التربوية التي تطرح بمزيد من القوة نفسها في مسار البحث عن حلول تربوية لمسألة العنف والعدوانية عند الإنسان. فكثير من الباحثين والدارسين يؤكدون أهمية العوامل التربوية في توليد العنف أو في الوقاية منه.

وقد بدا جليا أمام المفكرين والباحثين بأن التربية هي الحلقة الأكثر أهمية في دورة العنف وتجلياته. ومن هذا المنطلق بدأت الجهود تناظب والأعمال تتضامن في سبيل بناء نظرية تربوية تتنظم فيها طبيعة العنف وتتصفح معها خلفيات وجوده.

لقد أصبح العنف اليوم حقيقة تربوية تفرض نفسها في مدار الحياة الاجتماعية. فالمؤسسات التربوية تواجه اليوم مظاهر متعددة للعنف وتؤدي إلى انتشار مشاعر الخوف والقلق والذعر من قبل الأهالي والمربين. وعلى

هذا الأساس يحاول التربويون اليوم الكشفَ عن الأسباب التربوية لهذه الظاهرة وتحديد جوهر العنف التربوي وطبيعته ومن ثم اكتشاف الشيفرة العلمية وتبييد الغموض الذي يلف ظاهرة العنف الإنساني برمتها. فالعنف في التربية وخارجها يشكل رسالة خفية موسأة بكل معانٍي الغموض تعبر عن قيود الإنسان واستلهامه ومعاناته الوجودية.

وبين التربويون في هذا السياق مجموعتين من الأسباب التي تكمن في أصل العنف التربوي: حيث تشمل المجموعة الأولى أسباب تعود إلى طبيعة الاتصال الاجتماعي والتفاعل في سياق الحياة المجتمعية. فالعنف في هذا المستوى قد ينجم عن سوء تكيف في طبيعة الاتصال الاجتماعي بين الأفراد. أما المجموعة الثانية من العوامل فتعود إلى خلفيات سيكولوجية تتصل بطبيعة الإنسان وتكويناته الفطرية كما يعتقد فرويد الذي يرى أن العنف متصل في طبيعة الإنسان أو كما يرى الفيلسوف الإنجليزي هوبيس في القرن السابع عشر الذي يرى بأن الشر أصل في طبيعة الإنسان. وهذه الفكرة تجد صداقتها في بعض الأعمال السيكولوجية المعاصرة التي ترى أن الطبيعة الإنسانية تتطوّي على مراحل حرجية في نسق تطورها ونماذجها والتي تتمثل في طبيعة المحن والصعوبات والخبرات القاسية التي تمر بها الشخصية والتي تلعب دوراً كبيراً في توليد العنف ومظاهر الدوافع في السلوك الإنساني.

فالعنف التربوي يتجلّى في العلاقة بين البنى الداخلية للشخصية وبين البنى الخارجية التي تتمثل في طبيعة التفاعلات الاجتماعية في مختلف مستوياتها وتجلياتها بدءاً بالقيم السائدة ومروراً بالاتجاهات القائمة وانتهاء بالممارسات الواقعية والحياتية الجارية في نسق المجتمع. وهذا يجري التأكيد

على أهمية التأثير المتبادل بين الأشخاص المتفاعلين ولاسيما فيما يتعلق بالبنية الذاتية للفرد والتي يمكنها أن تشكل الهوية الشخصية للفرد أو الشخصية الأساسية في المجتمع. وهنا يتضح أن عملية التفاعل التربوي تتضمن في سياق حركتها هذه العلاقة التفاعلية والдинامية ما بين العمق السيكولوجي والخارجي، أي أنها في الوقت نفسه تأخذ طابعاً داخلياً وخارجياً في الآن الواحد. وهنا نجد أن العنف يتدخل في نسق هذه العلاقات وينبع من داخلها وبالتالي فهو يشكل طاقة حيوية في توجيه هذه العلاقات وتحديد هويتها.

ولا يمكننا هنا تجاهل أهمية البنية اللاشعورية للأفراد وذلك لأن العنف قد يأخذ في أغلب الأحيان طابعاً لا شعورياً. فالعنف قد يشكل لحظة من لحظات الدورة الانفعالية عند الإنسان. حيث تتأجج العلاقة الحيوية بين الوسط الداخلي للشخصية والوسط الخارجي الذي يحتضنها في تفسير بعض مظاهر العنف وتجلياته. وهذا يعني بالضرورة أن اهتزاز هذه العلاقة القائمة بين الداخل والخارج قد تؤدي إلى ولادة العنف بأشكاله المختلفة وتجلياته المتعددة.

فالعنف ينجم غالباً عن تراكم الشحنات الانفعالية الضاغطة في أعماق الفرد والتي تحتاج إلى نوع من التفريغ لتحقيق التوازن وبالطبع فإن حالة التفريغ تتم عبر قنوات العنف والعدوانية. فالإنسان الذي تراكم في داخله شحنات انفعالية ضاغطة تؤدي إلى اختناق سيكولوجي وانفعالي لا يحتمل وبالتالي فإنه يفرض على الفرض نوعاً من الانفجار الذي يجسد ظاهرة العنف.

وهذا لا يمكن لأحد أن ينكر أهمية العوامل التربوية ودورها في توليد العنف أو كبح جمائه. فالفعاليات التربوية المختلفة توجد في أصل العنف وتوجه مساره على النحو الاجتماعي الذي يتبدى فيه، فالمدرسة والعائلة معنية

بغرس القيم وبناء الاتجاهات وتشكيل عقلية الأفراد وفي نسق هذه القيم وفي بنية هذه الاتجاهات وفي عمق هذه العقليات يمكن للعنف أن يأخذ مجرى وأن يستلهم مساره وأن يتحدد بوصفه ظاهرة اجتماعية مؤسسة على نحو تربوي. ومن هذا المنطلق يمكن البحث عن مخارج تربوية ممكنة لتجاوز ظاهرة العنف التربوي وفي اتجاه تجاوز العنف الإنساني نحو قيم جديدة خالقة تتتمثل في التعاون والسلام والأمن واحترام الآخر كمنظومة قيمية جديدة يمكن أن تبني على أساس رؤية منهجية لمدى الخطير الذي تمثله النتائج السلبية للعنف والعدوانية في المدرسة.

فالعنف في التربية هو ظاهرة جزئية لظاهرة نظمية تمتد لتشمل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. ومع ذلك فال التربية هي الحلقة الأكثر أهمية لأنها قد تؤدي إلى ولادة العنف أو تدمير الأسس التي يقوم عليها.

والقضية الجوهرية هنا هي أن المؤسسات التربوية تشكل مؤسسات نموذجية للحياة الإنسانية: حياة الأطفال والناشئة. فالأطفال يقضون جل حياتهم في مقاعد الدراسة. وهذا يعني أنه يجب على المجتمع أن يوفر للأطفال وال المتعلمين الحياة الآمنة التي توجد في أسباب بناء الإنسان وتكامله وازدهاره. فما معنى حياة تسودها المخاوف الوجودية من العنف والعدوان؟ ومن أجل بناء الأمن وحماية الناشئة من القلق الوجودي علينا اليوم إعادة النظر في المناهج وأساليب العمل والتصورات والقيم والمبادئ التربوية ومن ثم بناء هذه المناهج وهذه القيم والتصورات على أساس جديد يمكن أن يوظف في توفير الأمن وحماية المدرسة من آثار العنف والعدوان كمقدمة موضوعية أساسية لحملية المجتمع وضمان أمنه واستقراره.

## مراجع الكتاب

### ١- المراجع العربية

- ١- أحمد الخطاب، الصفات التي يجب أن تتصف بها التربية للاستجابة لمتطلبات القرن الواحد والعشرين، مكتب اليونيسكو الإقليمي، العدد ٣٥، يونيو، حزيران ١٩٨٩.
- ٢- أحمد جلال عز الدين: الإرهاب والعنف السياسي، دار الحرية، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٣- المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية: ظاهرة العنف، العدد ١٢٢، اليونيسكو، مركز مطبوعات اليونيسكو، القاهرة، ١٩٨٩.
- ٤- بكر القباني: ثورة يوليوب أصول العمل الثوري المصري، دلو النهضة القاهرة، ١٩٧٠.
- ٥- بير فيو، العنف والوضع الإنساني، في كتاب المجتمع والعنف: مجموعة من الاختصاصين، ترجمة الياس زحلوي، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ١٩٨٥.
- ٦- ببير بورديو، العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤.
- ٧- توماس بلات، مفهوم العنف: وصفه وتقديره، ضمن: المجلة الدولية لعلوم الاجتماعية، ظاهرة العنف: منظورات من خلال الفلسفة وعلم الاجتماع، عدد ١٢٢، (صص ٢-١٧).
- ٨- جان كلود فيلو، اللاشعور بحث في خفايا النفس الإنسانية، ترجمة علي وطفة، دار معن للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٦، ص ٨٧.
- ٩- حسن سعيد الكرم، الهداي، ج ٢، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣.

- ١٠ - حسين توفيق إبراهيم: ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢. حنة أرندت، في العنف، ترجمة إبراهيم العريش، دار السلفي، بيروت، ١٩٩٢.
- ١١ - خالص جلبي، سينولوجيا العنف، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨.
- ١٢ - روبرت فانك، العنف والقدرة، ترجمة شريف بهلو، ضمن: المجلة الدولية لعلوم الاجتماعية، ظاهرة العنف: منظورات من خلال الفلسفة وعلم الاجتماع، عدد ١٢٢، ١٤٤، (صص ٥-١٥).
- ١٣ - رينيه جيرارد، كيش القداء: العنف والاضطهاد، ترجمة جهاد هوامش، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٩.
- ١٤ - زكريا إبراهيم مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٤.
- ١٥ - زيد بن محمد بن هادي المدحتي، الإرهاب وأثاره على الأفراد والأمم، مكتبة الفرقان، عجمان، ٢٠٠٠.
- ١٦ - سامر علمر، العنف والإرهاب، المركز العالمي لدراسات، طرابلس، ١٩٩٦.
- ١٧ - سهيل الغروسي، العنف مقدمات ونتائج، الفكر السياسي (اتحاد الكتاب العرب)، العدد الثالث عشر والرابع عشر ربیع وصيف ٢٠٠١.
- ١٨ - عبد الله بلقیر، العنف السياسي في الوطن العربي، المستقبل العربي، عدد ٩، ١٩٩٦ (صص ١٨-١١٠).
- ١٩ - عبد الله عبد الدايم، التربية والقيم الإنسانية في عصر العلم والتقانة والمال، المستقبل العربي، السنة العشرون، العدد ٢٣٠، نيسان /ابريل، ١٩٩٨.
- ٢٠ - عزت سيد اسماعيل، سينولوجيا التطرف والإرهاب، الرسالة ١١٠، حوليات كلية الآداب، الكويت، الكويت، ١٩٩٦.
- ٢١ - علاء اللامي، خرافية العنف الدموي في ضوء العلوم الحديثة: رؤية تحليلية في غرائز التدمير والانتقام والحروب، مجلة الزمان الجديد، العدد ٣٦، ديسمبر/كانون الأول، ٢٠٠٢.

- ٢٢ - علي أسد وطفة، التربية إزاء تحديات التنصب والعنف في العالم العربي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٢.
- ٢٣ - علي أسد وطفة، بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠.
- ٢٤ - علي وطفة، الإرهاب التربوي، العربي الكويتي، عدد ٤٦٠، مارس/آذار ١٩٩٧.
- ٢٥ - محمد الجوة، مفهوم القمع عند فرويد وماركس، ترجمة فتحي الرقيق، الفارابي، ١٩٩٤.
- ٢٦ - محمد يسري إبراهيم دعيس: الإرهاب والشباب، دار الندوة، الإسكندرية، ١٩٩٩.
- ٢٧ - مصطفى حجازي، سبيكلوجية الإنسان المقهور، معهد الاماء للعرب، بيروت، ١٩٨٩.
- ٢٨ - نجاح محمد، العقل العربي والقمع، المعرفة السورية، السنة الثالثة والثلاثون، العدد ٣٦٦، آذار/مارس، ١٩٧٤.

## ٤- المراجع الأجنبية:

- 1- **Augene Aroneanu: La définition de l' agression, Les Ed. Internationales, Paris, 1982.**
- 2- **D. Anzieu, L'Auto-analyse de Freud et la découverte de la psychanalyse, 2 vol., P.U.F., Paris, 1975, 3e éd. 1988.**
- 3- **Gürdini. R., La puissance, Seuil, Paris, 1954.**
- 4- **S. Freud , Contribution à la psychologie amoureuse, Beiträge zur Psychologie des Liebeslebens, 1910-1912-1917, trad. J. Laplanche et D. Berger, in La Vie sexuelle, P.U.F., 1969; Un souvenir d'enfance de Léonard de Vinci, Eine Kindheitserinnerung des Leonardo da Vinci, 1910, trad. M. Bonaparte, Gallimard, Paris, 1977.**
- 5- **S. Freud, Trois Essais sur la théorie de la sexualité, Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie, 1905, trad. B. Reverchon-Jouve, Gallimard, Paris, 1962.  
S. Freud & J. Breuer, Etudes sur l'hystérie- über den psychischen Mechanismus hysterischer Phénomène, 1893; Studien über Hysterie, 1895, trad. A. Berman, 2e éd. P.U.F., Paris, 1967.**
- 6- **S. Freud & O. Pfister, Correspondance avec le pasteur Pfister. 1909-1939, E. L. Freud et H. Meng éd., trad. L. Jumel, Gallimard, Paris ,1966.**
- 7- **S. Freud Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient, Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten, 1905, trad. M. Bonaparte et M. Nathan, rééd. Gallimard, Paris, 1969, nouv. trad. D. Messier. 1988.**
- 8- **S. Freud Malaise dans la civilisation, Das Unbehagen in der Kultur, 1930, trad. M. Bonaparte, P.U.F., 9e éd. 1983, trad. C. et J. Odier, 10e éd. Paris. 1986.**
- 9- **S. Freud Psychopathologie de la vie quotidienne, Zur Psychopathologie des Alltagslebens, 1901, trad. S. Jankélévitch, rééd. Payot, Paris, 1967; Le**

- Rêve et son interprétation, *Über den Traum*, 1901, trad. H. Legros, rééd. Gallimard, 1969.
- 10- S. Freud , *Totem et tabou. Totem und Tabu*, 1912, trad. S. Jankélévitch, 7e éd. Payot, Paris, 1977.
  - 11- S. Freud *Trois Essais sur la théorie de la sexualité, Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie*, 1905, trad. B. Reverchon-Jouve, Gallimard, paris, 1962.
  - 12- S. Freud , *Au-delà du principe de plaisir*, 1920.
  - 13- S. Freud *La Disposition à la névrose obsessionnelle», Die Disposition zur Zwangsneurose*, 1913, in *Névrose, psychose et perversion*, P.U.F., 6e éd. 1988.
  - 14- S. Freud , «Le moi et le ça», 1923, trad. S. Jankélévitch, Payot, 1927, éd. rev. A. Hesnard, 1963, nouv. trad. A. Bourguignon, P. Cotet, J. Laplanche et al., Payot, Paris, 1981.
  - 15- S. Freud , *Sur les transpositions de pulsions, particulièrement dans l'érotisme anal*, ber *Triebumsetzungen im besondere des Analerotik*, 1917, in *La Vie sexuelle*, P.U.F., 8e éd. Paris, 1989.
  - 16- S. Freud , *Cinq Leçons sur la psychanalyse*, ber *Psychoanalyse*, 1909, trad. Y. Le Lay et S. Jankélévitch, 25e éd. Payot, Paris, 1989.
  - 17- S. Freud , *Considérations actuelles sur la guerre et la mort» (1915)*, in *Essais de psychanalyse*, Payot, Paris, 1981.
  - 18- S. Freud , *Contribution à la psychologie amoureuse,, Beiträge zur Psychologie des Liebeslebens*, 1910-1912-1917, trad. J. Laplanche et D. Berger, in *La Vie sexuelle*, P.U.F., Paris, 1969.
  - 19- S. Freud , *Délire et rêves dans la «Gradiva» de Jensen. Der Wahn und die Träume in W. Jensens «Gradiva»*, 1907, trad. M. Bonaparte, Gallimard, Paris, 1949.
  - 20- S. Freud, *Essais de psychanalyse, «Considérations actuelles sur la guerre et la mort»*, 1915;

- 21- S. Freud, **Inhibition, symptôme et angoisse**, *Hemmung, Symptom und Angst*, 1926, trad. M. Tort, 9e éd. P.U.F., Paris, 1990; **Malaise dans la civilisation**, *Das Unbehagen in der Kultur*, 1930, trad. M. Bonaparte, P.U.F., 9e éd. 1983, trad. C. et J. Odier, 10e éd. 1986.
- 22- S. Freud, **L'Avenir d'une illusion**, *Zwangshandlungen und Religionsübungen*, 1907, *Die Zukunft einer Illusion*, 1927, trad. M. Bonaparte, 5e éd., P.U.F., Paris, 1980.
- 23- S. Freud , **Le Mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient**, *Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten*, 1905, trad. M. Bonaparte et M. Nathan, rééd. Gallimard, 1969, nouv. trad. D. Messier, 1988.
- 24- S. Freud , **Le Rêve et son interprétation**, *ber den Traum*, 1901, trad. H. Legros, rééd. Gallimard, Paris, 1969.
- 25- S. Freud , **Lettres de jeunesse**, trad. C. Heim, Gallimard, Paris 1990.
- 26- S. Freud , **Ma vie et la psychanalyse**, *Selbstdarstellung*, 1925, suivi de **Psychanalyse et médecine**, *Die Frage der Laienanalyse*, 1926, trad. M. Bonaparte, rééd. Gallimard, Paris, 1968.
- 27- S. Freud , **Moïse et le monothéisme**, *Der Mann Moses und die monotheistische Religion*, 1939, trad. A. Berman, rééd. Gallimard, Paris, 1967.
- 28- S. Freud, **Psychopathologie de la vie quotidienne**, *Zur Psychopathologie des Alltagslebens*, 1901, trad. S. Jankélévitch, rééd. Payot, Paris, 1967;
- 29- S. Freud , **Totem et Tabou**, *Totem und Tabu*, 1912, trad. S. Jankélévitch, 7e éd. Payot, Paris, 1977.
- 30- S. Freud, **Trois Essais sur la théorie de la sexualité**, *Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie*, 1905, trad. B. Reverchon-Jouve, Gallimard, Paris, 1962.
- 31- S. Freud , «Au-delà du principe de plaisir, [1920]», in **Essais de psychanalyse**, Payot, paris,1981.

# الفهرس

## الصفحة

٥ .....	إهداء
٧ .....	مقدمة
١٣ .....	المبحث الأول : مظاهر العدوانية الإنسانية وتجلياتها
٢٩ .....	المبحث الثاني: مفهوم العدوانية : حدود وتحوم
٥٧ .....	المبحث الثالث: العدوانية في نظرية فرويد
٦٥ .....	المبحث الرابع: العدوانية في المرحلة الأولى من تفكير فرويد
١٠١ .....	المبحث الخامس: العدوانية في المرحلة الثانية من تفكير فرويد
١١٧ .....	المبحث السادس: العدوانية في المرحلة الثالثة من تفكير فرويد
١٤٥ .....	المبحث السابع: الأسس الفيزيولوجية والنفسية للعنف والعدوانية
١٦٣ .....	المبحث الثامن: جرائم ضد الطفولة والإنسانية
١٧٧ .....	خاتمة الكتاب: رؤية إجمالية في العنف والعنف التربوي
١٨٥ .....	مراجع الكتاب
١٨٨ .....	المراجع الأجنبية

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



БІБЛІОТЕКА НАЦІОНАЛЬНОГО Університету

ІМЕНІ АLEXАНДРА ПУСКІНА